بناء الإيمان
من خلال القرآن

طبعة جديدة
مزيدة ومنقحة

حُقوقُ الطبعِ مَحفُوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م

الطبعة الثانية
١٤٤١هـ = ٢٠٢٠م

رقم الإيداع : ٢٧٨٠ / ٢٠٠٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N

٩٧٧-٦١١٩-٥٠-٦

بناء الإيمان
من خلال القرآن

مجدي الهلالي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.. سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فمما لا شك فيه أن للإيمان الصادق دورًا كبيرًا في صلاح الإنسان واستقامته على أمر الله، ولِمَ لا وهو يُعد بمثابة الشجرة المباركة التي تضرب بجذورها في القلب، وتظهر ثمارها الطيبة المتنوعة على الجوارح من صدق، ووفاء، وأمانة، وتضحية، وورع، و...، وهذا يؤكده قوله ﷺ: «.. **أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[1].

معنى ذلك أن الإيمان هو الدواء الشامل لكل ما نعانيه من مشكلات، فكل ما يحدث حولنا من غلبة المفاهيم المادية، وحرص الناس على تحصيل الشهوات، وسعارهم على الدنيا، وإيثارهم أنفسهم على الآخرين وإن كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.. كل هذا ما هو إلا آثار ومظاهر لفساد القلب وضعف الإيمان فيه.

وإن أردنا صلاحًا وفلاحًا، وتغييرًا لهذا الواقع فلا بد أن نبدأ بإصلاح القلب وتمكين الإيمان منه.

فإن قلت: ولكننا نرى الكثيرين من المسلمين يملؤون المساجد، ويكثرون من

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم: ٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩).

الذكر وقراءة القرآن، ويتسابقون على أداء العمرة والحج، ومع ذلك لا نرى آثارًا طيبة للإيمان في سلوكهم، ومعاملاتهم، بل لا نكاد نفرق بينهم وبين عامة الناس.. فأين ثمار شجرة الإيمان التي تتحدثون عنها؟!

نعم، هذا واقع مُشاهد بيننا، فمن السهل أن تجد أحدنا محافظًا على الصلاة، مكثرًا من النوافل والطاعات، وفي الوقت نفسه تجد سلوكه بعيدًا كل البعد عما يتوقع أن يكون عليه، فقد تراه غليظًا مع الآخرين، يؤثر دومًا مصلحته على مصلحة غيره.. يلهث وراء الدنيا، ويسعى لتحصيل أكبر قدر منها.

هذا الواقع يؤكد أن تلك العبادات التي نؤديها بجوارحنا لم تفِ بالغرض الأساس للقيام بها، فلقد شرعت العبادات لزيادة الإيمان والتقوى في القلب: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١]، وعندما يزداد الإيمان في القلب من خلال الأداء الصحيح لهذه العبادات، فإن ذلك من شأنه أن يُصلح أعمال العبد؛ فيكون ذلك سببًا في استقامته على صراط الله؛ ومن ثَمَّ دخوله الجنة، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالصلاة لها دور كبير في ترك الفحشاء والمنكر من خلال زيادتها للإيمان في القلب، والذي يقوم -بدوره- في منع صاحبه من اقتراف الفحشاء والمنكر.

فإن كانت العبادات لم تؤدِّ دورها في زيادة الإيمان، فلا بد أن نبحث عن السبب وراء ذلك، وهذا يستدعي منا معرفة معنى الإيمان، وحقيقته، وكيفية زيادته من خلال العبادات التي شرعها الله عَزَّوَجَلَّ.

ومما يجدر الإشارة إليه أن الطاعات كلها أنوار، وعندها القابلية -بإذن الله-

لزيادة الإيمان في القلب وتنويره وإصلاحه، ومع ذلك يبقى أهم مصدر لزيادته هو القرآن، ولِـــمَ لا وهو النبع المتجدد، والمنادي الذي ينادي على جميع المسلمين: أن أقبلوا علـــيّ واغترفوا مني إيمانًا: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

قال محمد بن كعب القرظي: المنادي هو القرآن، ليس كلهم رأى النبي ﷺ[١].

والقـــرآن لا يقوم بزيادة لحظية للإيمان فقط، بـــل إنه يقوم بدور عظيم في بناء القاعدة الإيمانيـــة العريضة، لتقوم بعد ذلك الطاعات برفع تلك القواعد وتشـــييد صرح الإيمان كاملًا في القلب.

وحول حقيقـــة الإيمان وزيادتـــه، ودور القرآن في ذلـــك، وكيفية بناء صرح الإيمان من خلاله، يدور الحديث بعون الله وفضله في هذه الصفحات.

نسأل الله أن يلهمنا الرشد والسداد والتوفيق والقبول: ﴿ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ٣٢].

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص ٥٨).

الفصل الأول

حقيقة الإيمان

حقيقة الإيمان

الإيمان -كما نعلم- محله القلب: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤].

والإيمان هو الإقرار والتصديق.. إقرار القلب لأفكار العقل وتصديقه لها وتفاعله معها، وبدون هذا الإقرار والتصديق تظل الأفكار حبيسة العقل.

وكل ما يتفاعل معه القلب ويصدق عليه من أفكار يطلق عليه لفظ الإيمان، سواء أكان ذلك خيرًا أم شرًّا.. خطأً أم صوابًا.. تأمل معي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

فالآية تحدثت عن طائفة من الناس مؤمنة.. ولكن بماذا؟! بالجبت والطاغوت.

وهذا يفسر لنا التضحية العجيبة التي يقوم بها دعاة الباطل من أجل الترويج لباطلهم.. هذه التضحية ما هي إلا نتاج إيمان عميق وقر في قلوبهم تجاه هذا الباطل.

الإيمان مشاعر:

قلب الإنسان هو الملك على جميع الأعضاء، وما من فعل إرادي يقوم به العبد إلا وينطلق من القلب.. نعم، العقل يشير على القلب للقيام بالفعل، ولكن قد يوافق القلب على ذلك وقد لا يوافق.. فإن تمت الموافقة صدرت منه الأوامر للأعضاء

بالتنفيذ، ويلخص القرآن هذه الخطوات التي تؤدي إلى القيام بالفعل في قوله تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنعام: ١١٣].

فلا بد أولًا من إصغاء القلب لصوت العقل، ثم رضاه بما يشير عليه ليتم بعد ذلك الفعل والاقتراف.

إذن القلب هو أهم عضو عند الإنسان.. قال ﷺ: «.. **أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»(١).

هذا القلب ما هو إلا مجمع المشاعر داخل الإنسان، فمشاعر الرضا، والحب، والكراهية، والفرح، والحزن، والسكينة، والطمأنينة، والخوف، والرجاء، و...، تشكل البنية الأساسية للقلب، ولو تأملنا أي سلوك إرادي نقوم به لوجدناه ينطلق من مشاعرنا، فعندما تستثار مشاعر الخوف تجاه شيء ما ينعكس ذلك على السلوك بطلب الهرب منه، وعندما تستثار مشاعر الرأفة والعطف تجاه فقير أو محتاج تشتد الرغبة في مساعدته.

وبما أن الإيمان محله القلب، فالإيمان إذن مشاعر، ومما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ومعلوم أن السكينة والطمأنينة ما هي إلا مشاعر ووجدانيات.

معنى ذلك أن إيمان الفرد بقضية (ما) يستلزم اتجاه المشاعر نحوها، وتفاعلها، وكلما اتجهت المشاعر وانفعلت وتأثرت بهذه القضية ازداد قدر الإيمان بها في القلب.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم: ٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩).

مفهوم الإيمان بالله:

إذن الإيمان بالله ليس -فقط- معرفة واقتناعًا عقليًّا به سبحانه، بل لا بد أن يتبع ذلك ميل قلبي وتفاعل، واتجاه لمشاعر الحب نحوه سبحانه، وهذا ما يؤكده قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧].

وكلما ازداد اتجاه المشاعر لله عَزَّوَجَلَّ فإن هذا يعني زيادة الإيمان به.. تأمل معي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، أي أن مشاعر الحب لديهم قد استحوذ عليها حب الله عَزَّوَجَلَّ، كما في الدعاء: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ الْأَشْيَاءِ لَدَيْنَا، وَخَشْيَتَكَ أَخْوَفَ الْأَشْيَاءِ عِنْدَنَا..**»[(١)]، فمشاعر الحب والخوف والرجاء ينبغي أن يكون لله فيها أكبر نصيب، وعلى قدرها يكون مقدار الإيمان به سبحانه.. قال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**»[(٢)].

المشاعر بين الإيمان والهوى:

الهوى -كما يُعرِّفه العلماء- هو ما تميل إليه النفس من حب للشهوات والعلو على الآخرين، وكراهية المشقة والتكليف والنقد.

والهوى مثل الإيمان: مشاعر محلها القلب، أي أن مشاعر الإنسان يتقاسمها هوى النفس، والإيمان بما في العقل من حقائق، وعلى قدر استحواذ أحدهما عليها يكون تأثيره على إرادة القلب، فالطالب يريد المذاكرة، ونفسه تريد النوم أو اللعب.. هنا يحدث الصراع بين إيمانه بأهمية المذاكرة وضرورتها لنجاحه وتفوقه، وبين

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٨٢).

(٢) رواه أبو داود (٧/ ٦٩ برقم: ٤٦٨١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٣٨٠).

هوى نفسه وحبها للراحة وكراهيتها للمشقة، والذي سينتصر في النهاية هو الأقوى استحواذًا على المشاعر.

هذا الصراع يحدث بصفة عامة عند اتخاذ أي قرار.

وكذلك حين يريد الإنسان القيام بطاعة (ما) كصلاة الفجر مثلًا، فإن الصراع يحدث في قلبه بين إيمانه وهواه، وعلى قدر قوة أحدهما يكون الانتصار له، ويكون القرار في صالحه، ويؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: «**لاَ يَزْنِي الْعَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ حِينَ يَشْرَبُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَقْتُلُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ**»[1]، فلحظات الزنى أو السرقة أو القتل عكست انتصار الهوى على الإيمان، وقوة سيطرته على المشاعر في تلك اللحظات.

إذن فالقرارات التي تصدر من القلب للجوارح بالتنفيذ تعكس انتصار الإيمان على الهوى، أو انتصار الهوى على الإيمان.

وبمعنى آخر **فإن أعمال الجوارح تدل على ما في القلب من إيمان أو هوى،** فحجم الطاعات وأعمال البر التي يؤديها العبد تدل على قدر الإيمان في قلبه، فكلما ازدادت استقامة العبد في قوله وفعله فإن هذا يدل على قوة إيمانه، وفي المقابل فإن حجم الغفلات والمعاصي التي يقع فيها العبد تدل على قوة الهوى في قلبه.

أهمية الإيمان بالله:

معنى ذلك أن الإيمان هو الدافع لفعل الصالحات، وعلى قدره في القلب تكون الاستقامة على أمر الله.

---

(١) رواه البخاري (٨/ ١٦٤ برقم: ٦٨٠٩)، ومسلم (١/ ٧٧ برقم:٥٧).

تأمل معي قوله تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١].

ويؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[1]، فعلى قدر الإيمان يكون الإنكار.

إذن: فأعمال العبد تكشف حجم الإيمان الذي في قلبه، ومهما ادعى المدعون، وتظاهروا بقوة إيمانهم فإن أعمالهم تصدِّق ادعاءهم أو تكذبه.. فإن كنت في شك من هذا فاقرأ معي قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [النور: ٤٧-٥١].

معنى ذلك أنه كلما رأيت تقصيرًا وغفلات ومعاصي فاستدل بذلك على ضعف الإيمان في القلب، وكلما رأيت طاعات وورعًا واستقامة فاستدل من خلالها على قوة الإيمان.

وبمعنى آخر: فإن الذي يدفع المرء إلى أن يغض بصره سريعًا عندما يشاهد امرأة لا تحل له هو الإيمان الحي اليقظ في قلبه، والذي يجعله يطيل النظر ولو للحظة هو ضعف الإيمان.

---

(١) رواه مسلم (١/ ٦٩، رقم ٤٩).

والذي يدفع الشخص للورع في معاملاته هو قوة الإيمان، والذي يجعله يتساهل فيها هو ضعف الإيمان، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: ثَلَاثٌ مِنَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَحْتَلِمَ الرَّجُلُ فِي اللَّيْلَةِ الْبَارِدَةِ، فَيَقُومَ فَيَغْتَسِلَ لَا يَرَاهُ إِلَّا اللهُ، وَالصَّوْمُ فِي الْيَوْمِ الْحَارِّ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي الْفَلَاةِ لَا يَرَاهُ إِلَّا اللهُ[١].

الإيمان وعورات النفس:

ومما يزيد أهمية الإيمان معرفة دوره العظيم في التعامل مع عيوب النفس، فلقد خلق الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان، وجعل له نفسًا تحب دومًا تحصيل الشهوات، والاستئثار بكل خير.. شحيحة.. لا تتمنى الخير لأحد سواها..

هذه الصفات وغيرها تشكل جزءًا أساسيًّا من تكوين النفس، ولا يمكن إزالتها والتخلص منها بالكلية.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن وجود هذه الأشياء له دور كبير في استمرارية حياة الإنسان، فلو انمحى داخلنا حب المال ما سعى أحد لطلب الرزق، وفي الوقت نفسه فإن المذموم هو الحب الشديد للمال ومنع حقوق الله فيه..، وكذلك فإن عزة النفس لها دور كبير في ارتفاع العبد عن النقائص، لكنها تُذَم عندما تؤدي إلى إعجاب المرء بنفسه وغروره وتكبره على الآخرين.

فإن كان الأمر كذلك، فما السبيل الصحيح للتعامل مع تلك العورات؟!

الحل العملي لذلك هو الاجتهاد في ستر هذه العورات ليتحقق الأمران معًا: الاستفادة منها، واجتناب ضررها.

إن المجاري المائية -كالترع والمصارف- عندما يجف ماؤها فإن شكلها

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٥٢رقم ٥١).

يكـــون مقززًا من خلال ظهور النتـــوءات والقاذورات في قاعهـــا وجوانبها.. هذه الأشياء التي ظهرت عندما جف الماء من شأنها أن تختفي تمامًا إذا ما عاد الماء إلى هذه المجاري.

كذلك عورات النفس.. فعندما يضعف الإيمان والتقوى في القلب تظهر تلك العورات، وينكشف المســـتور من حرصٍ على الدنيا، وتكالبٍ عليها.. ومن حسدٍ وأثرةٍ، وعدم حب الخير للآخرين.. ومن اعتدادٍ بالرأي، وانتصارٍ للنفس.

في حين أن هذه العورات ســـرعان ما تختفي حين يزداد الإيمان في القلب.. تأمل معي قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فلباس التقوى هو أفضل وســـيلة لستر عورات النفس، وإن أردت مثالًا لذلك فانظر إلى سحرة فرعون الذين جاءوا من أجل المال والعلو والشرف، وما إن دخل الإيمان قلوبهم حتى سُترت تلك العورات، فســـمت اهتماماتهم، وتطلعوا إلى ما عند الله، وقالوا لفرعـــون: ﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣ ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

الثمار المباركة:

إذن فللإيمان الحي أثر ضخم في حياة صاحبه، فمن خلاله تتحرر إرادة القلب من أسر الهوى.. يريد الخير فيفعله.

وكلما ازداد الإيمان استيقظ القلب من غفلته، وانتبه من رقدته، ورأى ببصيرته الدنيا على حقيقتها، وأنها حقيرة ينبغي الزهد فيها، ولاح له علم الآخرة فشمر إليه.

وكلما ازداد الإيمان سُـترت عورات النفس، وزاد الإيثار، وقلت الأثرة، وزاد الحرص على التضحية في سبيل الله.

كلما ازداد الإيمان تحـرر العبد من القيود التي تربطـه بالأرض، وتمنعه من الحرية والانطلاق.

أمور كثيرة يفعلها الإيمان في قلب العبد ونفسه؛ مما يكون له أعظم الأثر على سلوكه وتعاملاته في كل الدوائر التي يتحرك فيها.

فمع نفسـه تجده مُعظِّمًا لشـعائر الله، ورعًا.. تقيًّا.. مبكـرًا إلى الصلاة في المسجد، محافظًا على قيام الليل.. كثير الإنفاق.

ومع أهله تجـده نِعم الزوج لزوجته، والأب لأبنائـه، والابن لوالديه، والأخ لإخوانه.

ومع مجتمعه تجـد أن صاحب الإيمـان الحي أكثر النـاس إنتاجًا في حقل الدعوة، يعيش هَم أمته، ويسعى بجهده في بناء المشروع الإسلامي.

كل هذه الثمـار المباركة تظهر بتلقائيـة، ودون تكلف: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [التوبة: ٤٤].

الإيمان وقيمة الفرد:

هذه الثمار العظيمة مرتبطة بقوة الإيمان في القلب، وعلى قدر زيادته يكون حجمها وتنوعها.. هذا مـن ناحية، ومن ناحية أخرى فإن قيمة الفـرد عند الله لها علاقة وثيقة بمقدار إيمانه وتقواه.. ألم يقل سبحانه: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾؟ [الحجرات: ١٣]،

فمن خلال الإيمان يمكن للفرد أن يصبح وكأنه أمة في ميزان الله عَزَّوَجَلَّ كأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي لو وُضع إيمانه في كفة وإيمان الأمة في كفة لرجحت كفته.

وهناك رجل يُقدَّر بألف رجل كما عدَّ عمر بن الخطاب الأربعة الذين أرسلهم مددًا لعمرو بن العاص لفتح مصر بأربعة آلاف، وكان على رأسهم الزبير بن العوام.

وقد يصبح الواحد بعشرة: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٥]. وقد يصبح الواحد باثنين فقط: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦].

فالضعف المذكور في الآية هو ضعف الإيمان، والذي تسبب في تقليل قيمة الفرد ليصبح باثنين؛ ومن ثم احتاج الأمر إلى زيادة العدد لجبر النقص.

وفي المقابل: عندما يضعف الإيمان في القلب ويسيطر عليه الهوى وحب الدنيا تنقلب الموازين وتضمحل قيمة الفرد حتى يصبح وكأنه يساوي معشار رجل، أو أقل، وأقل... ويزداد هبوطه حتى تتلاشى قيمته ليصبح المليون من أمثاله لا يساوون في ميزان الله رجلًا واحدًا.

ويزداد الهبوط ويزداد حتى تصبح الأمة كلها بلا قيمة تذكر.. غثاء كغثاء السيل كما هو الحال الآن.

كيف يزداد الإيمان:

إن كان للإيمان هذا الدور الخطير في صلاح الفرد والأمة، فلا بد أن يتوجه المصلحون والمربون إلى العمل على زيادته في قلوب الأفراد؛ لتظهر من خلاله تلك الآثار المباركة التي أشير إلى بعضها في الصفحات السابقة.

فإن قلت: وكيف يزداد الإيمان؟

هل زيادة الإيمان تتحقق بمجرد القيام بالطاعات والإكثار منها؟

لو كان الأمر كذلك لما وجدنا بعض المحافظين على الصلوات في المساجد يطففون في الميزان، ويجنحون نحو عدم قول الصدق حين تتعارض معه مصالحهم الشخصية، ويغضبون ويثورون حين تمس ذواتهم بنقد أو عتاب.

معنى ذلك أن سلوك العبد ومدى استقامته على أمر الله هو خير دليل يدل على انتفاعه بما يؤديه من أعمال صالحة، بمعنى أنه لو قامت هذه الأعمال بزيادة إيمانه لانعكس ذلك على سلوكه بصورة تلقائية كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فدور الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر إنما يكون من خلال زيادتها للإيمان في القلب، ليكون هذا الإيمان هو الدافع لترك الفحشاء والمنكر، فإن لم يصاحب الصلاة تحسن في السلوك وترك المنكرات فإن ذلك يدل على عدم زيادتها للإيمان في القلب.

إذن فالقضية ليست في كثرة طاعات وأعمال جوارح فقط، بل لا بد أن يتقصد المرء من خلالها زيادة الإيمان.. فكيف يتم ذلك؟!

هنا تبرز قيمة معرفة حقيقة الإيمان ليتسنى لنا أن نعرف كيفية زيادته.

حقيقة الإيمان:

كما قيل في الصفحات السابقة إن الإيمان محله القلب، والقلب هو مجمع المشاعر داخل الإنسان، وإن هذه المشاعر يتقاسمها الإيمان والهوى، وصاحب

النصيب الأكبر هو الأكثر سيطرة على القلب وقت اتخاذ القرار.

إذن فزيادة الإيمان تعني تخلص جزء من المشاعر من سيطرة الهوى واتجاهها لكفة الإيمان.

وكما نعلم أن تجاوب المشـــاعر مع أمرٍ ما يعني تأثرها وانفعالها.. معنى ذلك أن لحظات التأثر والانفعال مع أمر يخدم الهوى -كمن يستمع إلى أغنية مثلًا- من شـــأنه أن يزيد مســـاحته في القلب، وفي المقابل فإن لحظات التأثر والانفعال مع حقيقـــة من حقائـــق الإيمان تعني زيادة مســـاحته في القلب، وكلما اســـتمر التأثر استمرت الزيادة.

إذن فزيادة الإيمان التي من شـــأنها أن تُحدث الأثر الطيب في الســـلوك تعني التأثر والانفعال، وتجاوب القلب مع ما يفكر فيه الإنسان من حقائق إيمانية.

مـــن هنا يتضح لنا أن الإيمـــان إذا كان يزيد بالطاعة وينقـــص بالمعصية، فإن الطاعة التي تزيد الإيمان هي الطاعة التي يتحرك فيها القلب وينفعل بها ويتجاوب معها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

وفـــي المقابل فإن عدم تجاوب القلب مع الطاعـــة -مهما كثرت- يعني عدم زيادتها للإيمان فيه، ومن ثم عدم تحسن السلوك، فالعبرة إذن ليست بكثرة الطاعات ولكن بمدى تحرك القلب معها لذلك كان الحث القرآني للمؤمنين بضرورة خشوع قلوبهم مـــع الذكر حتى لا يضمحل فيها الإيمان وتقســـو، وتصبـــح كقلوب أهل الكتـــاب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

فإذا ما وضحت هذه الحقيقة كان الطريق ممهدًا لمعرفة كيفية زيادة الإيمان.

الإيمان قول وعمل:

الإيمان بالله يبدأ بتوجه جزء من مشاعر العبد له سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، هذا الجزء يحتاج إلى تنمية وزيادة مستمرة حتى تتخلص المشاعر من أسر الهوى والظلمة، وتنتقل إلى دائرة الإيمان والنور، وفي هذا الشأن يَقُولُ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ الْإِيمَانَ يَبْدَأُ لُمْظَةً بَيْضَاءَ فِي الْقَلْبِ، فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْإِيمَانُ عِظَمًا، ازْدَادَ ذَلِكَ الْبَيَاضُ، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ ابْيَضَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ، وَإِنَّ النِّفَاقَ يَبْدَأُ لُمْظَةً سَوْدَاءَ فِي الْقَلْبِ، فَكُلَّمَا ازْدَادَ النِّفَاقُ عِظَمًا، ازْدَادَ ذَلِكَ السَّوَادُ، فَإِذَا اسْتَكْمَلَ النِّفَاقَ اسْوَدَّ الْقَلْبُ كُلُّهُ، وَايْمُ اللهِ، لَوْ شَقَقْتُمْ عَنْ قَلْبِ مُؤْمِنٍ لَوَجَدْتُمُوهُ أَبْيَضَ، وَلَوْ شَقَقْتُمْ عَنْ قَلْبِ مُنَافِقٍ لَوَجَدْتُمُوهُ أَسْوَدَ»(١).

فإن كان الأمر كذلك فما السبيل إلى تنمية الإيمان في القلب واستكماله؟!

مما لا شك فيه أن السبب الأساس لزيادة الإيمان هو العمل الصالح، فالعمل الصالح بالنسبة للإيمان كالماء للزرع؛ لذلك نجد الخطاب القرآني الموجه للمؤمنين يقرن بين الإيمان والعمل الصالح، باعتبار أن وجود الإيمان في القلب دون أن يصاحبه عمل صالح، من شأنه أن يجعل الإيمان في دائرة ضيقة في القلب؛ ومن ثم تستمر سيطرة الهوى والظلمة عليه.

يقول الحسن البصري: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي، وَلَا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَتْهُ الْأَعْمَالُ، مَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ، رَدَّهُ اللَّهُ عَلَى قَوْلِهِ،

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٤٤ برقم:٣٧) واللمظة: الشيء اليسير.

وَمَنْ قَالَ حَسَنًا وَعَمِلَ صَالِحًا رَفَعَهُ عَمَلُهُ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠](١).

إذن لا بد من القيام بالأعمال الصالحة حتى يزداد الإيمان في القلب وينمو، وذلك من خلال تجاوب المشاعر مع تلك الأعمال.. وكلما حدث التجاوب تخلصت المشاعر من جزء من الهوى، وانتقلت إلى كفة الإيمان، وبهذا يزداد الإيمان بالعمل الصالح.

عَنْ عُمَيْرِ بْنِ حَبِيبٍ قَالَ: الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، فَقِيلَ: وَمَا زِيَادَتُهُ، وَنُقْصَانُهُ؟! قَالَ: إِذَا ذَكَرْنَا رَبَّنَا وَخَشَيْنَاهُ فَذَلِكَ زِيَادَتُهُ، وَإِذَا غَفَلْنَا وَنَسِينَا وَضَيَّعْنَا فَذَلِكَ نُقْصَانُهُ(٢).

من هنا يتأكد أنه من الضروري القيام بالأعمال الصالحة حتى يزداد الإيمان في القلب وينمو، وتتخلص المشاعر من أسر الهوى.

وعندما يغفل العبد عن هذه الحقيقة، ولا ينتهز فرصة دخول الإيمان إلى قلبه، وذلك بالعمل على زيادته وتوسيع دائرته، فإنه بلا شك سيندم أشد الندم على تضييعه لفرصة عظيمة كانت في يده.

ولقد عبر القرآن عن حال هؤلاء بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٥٨ برقم:٦٥).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٥٤ برقم:٥٥).

لا بد -إذن- من استثمار الحالة الإيمانية التي يمر بها العبد بترسيخها وتنميتها في القلب من خلال القيام بأعمال مصاحبة لها.

الإيمان أولًا:

نعم، الإيمان أولًا، بمعنى أنه لا بد أن يكون هناك إيمان حيٌّ يقظ في القلب تنطلق منه الأعمال الصالحة الخالصة لله عَزَّوَجَلَّ؛ لتعود تلك الأعمال على القلب بزيادة في إيمانه، وهذا ما يؤكدُه جُنْدُبُ الْبَجَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقَوْلِه: «كُنَّا فِتْيَانًا حَزَاوِرَةً مَعَ نَبِيِّنَا ﷺ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا، وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ»(١).

ومعنى تعلمنا الإيمان قبل القرآن، أي كان التركيز منصبًّا على كيفية اتجاه المشاعر لله عَزَّوَجَلَّ، ودخول النور إلى القلب من خلال المعاني الإيمانية التي يدل عليها القرآن، ويستثير من خلالها المشاعر، فتتأسس بذلك القاعدة الإيمانية؛ لتأتي الأوامر القرآنية بعد ذلك منطلقة منها فيزداد القلب إيمانًا.

وخلاصة القول أن دخول الإيمان إلى القلب يبدأ بشيء يسير ويحتاج إلى تعهد وتنمية. وهذا يأتي من خلال الأعمال التي يتجاوب معها القلب، فالتفكر مثلًا عبادة عظيمة من شأنها أن تستثير المشاعر وتزيد الإيمان، ولكن تظل هذه الزيادة في نطاق محدود ما دام لم يصاحبها عمل.. فإن صاحبها عمل كالذكر وتجاوب القلب ازداد الإيمان.

يقول الحسن البصري: إِنَّ أَهْلَ الْعَقْلِ لَمْ يَزَالُوا يَعُودُونَ بِالذِّكْرِ عَلَى الْفِكْرِ،

(١) شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٥٢ برقم:٥٠)، والمعجم الكبير للطبراني (٢/ ١٦٥ برقم: ١٦٧٨).

وَبِالْفِكْرِ عَلَى الذِّكْرِ، حَتَّى اسْتَيْقَظَتْ قُلُوبُهُمْ فَنَطَقَتْ بِالْحِكْمَةِ[١].

والاستماع إلى القرآن من صوت ندي خاشع قد يؤثر في القلب ويهز المشاعر، ويزيد الإيمان، ولكن هذه الزيادة ستكون أكبر وأعمق أثرًا لو تأثر القارئ من قراءته هو، لا من قراءة غيره.

والتفكر في أمر اليتيم يؤثر في القلب ولكن بصورة محدودة، فإذا صاحب ذلك مسح شعره والبشاشة في وجهه؛ رق القلب، وازداد الإيمان كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً شَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ: «**إِنْ أَرَدْتَ تَلْيِينَ قَلْبِكَ، فَأَطْعِمْ الْمِسْكِينَ وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ**»[٢].

مع الأخذ في الاعتبار بأنك لو مسحت على رأس اليتيم دون أن يسبق ذلك تفكر واستثارة للمشاعر فلن يؤدي الأثر المطلوب، وإن استثيرت مشاعرك عند رؤيته دون مسح رأسه فستكون الزيادة الإيمانية محدودة، وقس على ذلك الكثير من الأعمال، فالذكر دون حضور قلب تأثيره قليل الفائدة، والتفكر في الذنوب الماضية له أثر محدود على القلب إن لم يصاحبه استغفار ودعاء وتوبة باللسان، وهكذا.

أهمية التذكرة:

من الضروري -إذن- اقتران الإيمان والعمل الصالح.. أو بمعنى آخر: تأثر

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ١٩).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٦٣برقم: ٧٥٦٦)، والبيهقي (٤/ ٦٠برقم:٧٣٤٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم:(١٤١٠).

المشـــاعر وتجاوب القلب بمعنى إيماني، وأن يصحب ذلـــك عمل يزيد الإيمان ويرسخه في القلب.

فتذكُّر الموت يهز المشاعر ويزيد الإيمان ولكن بصورة محدودة، فإن صاحَبَ ذلك زيارة للمقابر ازداد الإيمان وازداد.

لا بد من تهيئة قلبية واســـتثارة للإيمان أولًا ثم العمل ثانيًا، فإذا تم العمل قبل التهيئـــة كان الأثر ضعيفًا.. من هنـــا تأتي أهمية التذكـــرة: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٥] فالتذكرة تســـتثير الإيمـــان وتدفع للعمل الصالح وتجعله ســـببًا لزيادة الإيمان من خلال تجاوب المشاعر المستثارة معه، مع العلم بأن التذكرة تنفع من في قلبه إيمان؛ فتســـتثير إيمانه وتدفعه للعمل الصالح فيزداد به إيمانًـــا، وهذا ما يؤكده قولـــه تعالى: ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأعلـــى: ١٠] وقوله: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٧٠] وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق: ٣٧].

فالمطلوب إيمان يدخل القلب.. وتذكرة تســـتثيره.. وعمل مصاحب يزيده، ولقد أكد القرآن على هذه الوسائل بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة: ١٥].

التذكير قبل التوجيه:

التذكير له أهميـــة كبيرة في زيادة الإيمان، مع الأخذ فـــي الاعتبار أن التذكرة المطلوبـــة هي التي تُســـتثيرُ المشـــاعرَ فتؤجِّجُهـــا، وتضرِبُ على أوتـــارِ القلوب فتلهبها[1].

(١) الوســـائل التي يمكننا اســـتخدامها لكي تكون التذكرة مؤثرة كثيرة، منها: التذكير بأهمية =

التذكرة المطلوبة هي التي تُذكِّر العقل بما نسيه من حقائق الإيمان، وتمزجه بمخاطبة العاطفة فتستثيرها، وتجعلها في حالة من التوقُّد والاستعداد للعمل.. فإذا ما تم ذلك كان من المناسب ربط هذه الحالة بعمل مصاحب حتى يزداد الإيمان ويرسخ في القلب، ولقد كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك مع الصحابة، يُذكرهم ويؤجج مشاعرهم، ثم يوجههم للعمل المطلوب.

انظر إليه ﷺ قبل بدء معركة بدر وهو يقول لأصحابه: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ**»، فاستُثيرت المشاعر، وتاقت النفوس إلى الجنة، وَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ: بَخٍ بَخٍ، فَقَالَ ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَولِكَ: بَخٍ بَخٍ**» قال: إي، وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِلاَّ رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قال: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**»، (فازدادت مشاعره استثارة) فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَييتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هذِهِ إِنَّهَا لَحَياةٌ طَوِيلَةٌ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ[1].

أرأيت ماذا يفعل الخطاب المؤثر في المشاعر؟

تخيل نفسك -أخي الحبيب- وكأنك مع الصحابة الكرام تستمع إليه ﷺ وهو يقول: «**أَلَا مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ؟ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا، هِيَ -وَرَبِّ الْكَعْبَةِ- نُورٌ يَتَلَأْلَأُ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، وَنَهَرٌ مُطَّرِدٌ، وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ نَضِيجَةٌ، وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ، وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ فِي مَقَامٍ أَبَدْ، فِي حِبْرَةٍ وَنَضْرَةٍ، فِي دَارٍ عَالِيَةٍ سَلِيمَةٍ بَهِيَّةٍ**». قَالُوا: نَحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**قُولُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ**»، فَقَالَ الْقَوْمُ:

= العمل وفضله وما يتحقق من ورائه، ومنها: استخدام القصة، وضرب الأمثال، وكذلك الصور المرئية، فالصورة لها قدرة عجيبة على النفاذ إلى المشاعر.. وكذلك المشاهد المؤثرة كرؤية أهل البلاء، ومنها كذلك المواعظ والصوت المؤثر الشجي.

(١) رواه مسلم (٣/ ١٥٠٩ برقم: ١٩٠١).

إِنْ شَاءَ اللَّهُ[1]... ثم بعد ذلك ذكر الجهاد في سبيل الله.. كيف سيكون حالك وأنت تستمع إلى هذه الكلمات؟! وكيف سيكون تشوقك للجهاد في سبيل الله؟!

بمثل هذا يكون التذكير قبل التوجيه.. أن يخاطب ذلك التذكير المشاعر حتى يستثير الإيمان، ليأتي العمل بعد ذلك مؤكدًا لهذا الإيمان ومسببًا لزيادته.

والمتأمل للقرآن يجده يستخدم هذه الطريقة الفريدة في مواضع متعددة، تأمل قوله تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ في سورة الضحى وهو يُعلي مِن قدره ويذكِّره بفضله عليه، ثم يوجهه بعد ذلك بتوجيهات مختلفة: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾ [الضحى: ٦-١١]، وكذلك قوله تعالى على لسان الملائكة لمريم: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٢ ﴾ [آل عمران: ٤٢]، فهذا تذكير وتشجيع يستثير المشاعر.. ليأتي التوجيه في الآية التالية: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣ ﴾ [آل عمران: ٤٣].

ويقص علينا القرآن طريقة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في التذكير قبل التوجيه في مواجهاته مع بني إسرائيل، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝٢١ ﴾ [المائدة: ٢٠، ٢١].

---

(١) رواه ابن ماجة (٥/ ٣٨٠ برقم: ٤٣٣٢)، والبزار (٧/ ٤٣)، وابن حبان في صحيحه (١٦/ ٣٨٩ برقم: ٧٣٨١)، والطبراني في الكبير (١/ ١٦٢)، والضياء في المختارة (٤/ ١٣٢ برقم: ١٣٤٣) وقال: إسناده حسن.

الفصل الثاني

كيف نزداد بالطاعات إيمانًا؟

كيف نزداد بالطاعات إيمانًا؟

شرع الله عَزَّوَجَلَّ الطاعات ليزداد العبد من خلال القيام بها إيمانًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١].

وكلما ازداد العبد إيمانًا ازداد قربه من ربه: ﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ [العلق: ١٩].

مع التذكير بأن العبادة التي تزيد الإيمان هي التي يتجاوب معها القلب ويتحرك، سواء أكان هذا التحرك في صورة خشوع، أم تضرع، أم إخبات، أم وجل، أم طمأنينة.

فالدعاء -على سبيل المثال- عبادة عظيمة، ولكن لكي يزداد به الإيمان -بإذن الله- لا بد من حضور القلب معه كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥]، فتحرُّك القلب مع الطاعة هو الذي يجعله ينتفع بها ويزداد إيمانًا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

فعندما تجاوب هؤلاء مع القرآن وتحركت قلوبهم معه، وسجدوا وسبحوا، وبكوا، ازدادوا بذلك خشوعًا.

مقياس زيادة الإيمان:

المؤشر الصحيح لزيادة الإيمان أو عدم زيادته بعد القيام بالطاعة هو تحسن

السلوك، فكما قيل سابقًا أن الإيمان هو الدافع للأعمال، وكلما ازداد الإيمان ازداد الدافع لفعل الصالحات، فإذا ما أدى العبد الطاعة، وتحرك قلبه معها، ازداد إيمانه، فتحسن تبعًا لذلك سلوكه.

فالصلاة والذكر وقراءة القرآن والصيام والحج والعمرة.. كل هذه العبادات تزيد الإيمان إذا تحرك القلب معها وانفعلت المشاعر، فإذا ما تم ذلك ظهرت الآثار اليانعة في السلوك.

معنى ذلك أن المقياس -بالأساس- هو السلوك، فإن تحسن بعد القيام بالطاعة دل ذلك على أنها قد قامت بدورها في زيادة الإيمان.

وفي المقابل، فكلما وجدنا طاعات كثيرة وأعمال صالحة دون أن يصحب ذلك تأثير وتحسن إيجابي في السلوك؛ دل ذلك على أن هذه الطاعات لم يتحرك معها القلب، ولم يزدد فيه الإيمان، وإنما أُديت فقط بالجوارح والعضلات، فلم تحقق مقصودها العظيم وهو زيادة الإيمان والتقوى في القلب.. والله أعلم.

أهمية الزيادة المستمرة للإيمان:

من طبيعة الإنسان النسيان، وكلما نسي الإنسان حقيقة وجوده في الدنيا، ونسي أنها دار امتحان؛ وكلما غفل عن الله عَزَّوَجَلَّ.. وجدت النفس مجالًا لتنفيذ طلباتها من حب للراحة وكراهية للتكليف، ووجدت الدنيا فرصتها للتزيُّن أمام العبد، ووجد الشيطان مجالًا خصبًا للوسوسة والإغواء.

كل ذلك من شأنه أن يقلل الإيمان في القلب، ويجذب المشاعر تجاه الهوى، وكلما ضعف الإيمان انعكس ذلك على السلوك.

من هنا اشتدت الحاجة إلى وجود منابع ووسائل مستمرة تزيد الإيمان في القلب وتمكنه منه.

ومما لا شك فيه أن الدور الأسمى للطاعات هو تعويض نقص الإيمان، وإمداد القلب بأسباب حياته ويقظته باستمرار، وإطفاء نار الذنوب والغفلات.. عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ لِلَّهِ مَلَكًا يُنَادِي عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ: يَا بَنِي آدَمَ، قُومُوا إِلَى نِيرَانِكُمْ الَّتِي أَوْقَدْتُمُوهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَأَطْفِئُوهَا بِالصَّلَاةِ**»(١).

فالعبادات تزيد الإيمان والتقوى، وتزيل أثر المعاصي والغفلات: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١** ﴾ [البقرة: ٢١].

نعم، هذا هو دور العبادات التي شرعها الله عَزَّوَجَلَّ للعباد، ولكن تبقى أهمية الإتيان بها بالطريقة التي تزيد الإيمان، وإلا لما أدت المقصود منها، فالذكر وسيلة مهمة لزيادة الإيمان ولكن -من الأهمية بمكان- أن يصحبه وجل وخشوع في القلب: ﴿ **ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ** ﴾ [الأنفال: ٢].

والصلاة وسيلة عظيمة لزيادة الإيمان، ولكن لا بد من حضور القلب وخشوعه معها: ﴿ **قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢** ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

وكذلك الحج: ﴿ **لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ** ﴾ [الحج: ٣٧].

وقراءة القرآن: ﴿ **ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ**

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٩/ ١٧٣ برقم: ٩٤٥٢)، والصغير (٢/ ٢٦٢ برقم: ١١٣٥)، وحسن إسناده الضياء المقدسي في المختارة (٧/ ١٦٢ برقم: ٢٥٩٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب.

﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨].

فالطاعات كلها أنوار، ومنابع لزيادة الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «... **الصَّلَاةُ نُورٌ؛ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ؛ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ..**»[١].

ولكن يبقى سؤال وهو: كيفية تفعيل هذه الطاعات وجعلها أداة لزيادة الإيمان، مع وجود عوامل مضادة تعمل باستمرار على إضعاف الإيمان والتمكين للهوى.

إيقاظ الإيمان هو البداية:

كما قيل سابقًا بأنه لا بد من وجود إيمان حي في القلب؛ ليكون دافعًا للقيام بالأعمال الصالحة.

معنى ذلك أنه لا بد من إيقاظ قدر الإيمان الموجود في القلب أولًا؛ ليتم من خلاله تفعيل الطاعات والاستفادة منها في زيادة الإيمان، وأهم وسيلة لإيقاظ الإيمان في القلب هو الخوف من الله، فالخوف كالسياط توقظ القلب من غفلته، وتصل به لمرحلة الانتباه قال ﷺ: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ...**»[٢].

يعلق المناوي في فيض القدير على هذا الحديث فيقول: فكل من خاف الردى، وفوت ما يتمنى لا يركن إلى الراحة ولا ينتظر الصباح، بل يبادر إلى الحركة والسفر

(١) رواه مسلم (١/ ٢٠٣ برقم: ٢٢٣).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٦٣٣ برقم: ٢٤٥٠) وقال: حديث حسن غريب، ورواه الحاكم (٤/ ٣٤٣) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٩٥٤).

ولــو كان بالليل، فأخبــر ﷺ أن الخوف من الله هو المقتضى للســير إليه بالعمل الصالح والمشار إليه بالإدلاج[١].

ويأتي مع وســيلة الخوف من الله كذلك وســيلة أخرى من شــأنها أن توقظ القلب من غفلته، ألا وهي شــدة الشوق إليه سبحانه، فعندما تستثار مشاعر الشوق إلى الله فإن هذا من شأنه أن يثمر انتباهًا وسعادة بالطاعة والمبادرة إلى القيام بها.

قال ابن عطاء: لا يُخرج الشَّهوةَ مِن القَلبِ إلَّا خَوفٌ مُزعِج أو شَوقٌ مُقلِق.

انتبه:

الخــوف من الله له أهمية كبيرة في توجيه مشــاعرنا نحوه ســبحانه، وإيقاظ القلب من غفلته، لكنه لا يكفي وحده لتشييد بناء الإيمان في القلب... لماذا؟!

لأن الخوف جزء من مشاعر الإنسان، والمطلوب تعبيد وجذب كل المشاعر إلى الله، مثل: مشــاعر الحب والشــوق والرضا والإخبات، والفرح والطمأنينة.. هذه المشــاعر تحتاج إلى وسائل تســتثيرها وتوجهها نحوه سبحانه، وإلا انحصر الإيمان في دائرة ضيقة... وكذلك فإن الشــوق إلى الله وحده لا يكفي لتشييد بناء الإيمان في القلب لنفس هذه الأسباب.

ومما يؤكد هذا المعنى أن الواقع المشــاهد بيننــا ينبئنا بأن هناك البعض ممن نجده خائفًا وجلًا ســريع البكاء عند سماع آيات العذاب، ولكنه في الوقت نفسه لا يتعامل مع الأقدار المؤلمة بنفس راضية، بل بنفس فزعة هلعة ســاخطة، وقد تجده كذلك يحب المال حبًّا جمًّا، يفرح لزيادته ويحزن لنقصانه، وقد تجده شديد التعلق

(١) فيض القدير للمناوي (٦/ ١٥٩) دار الكتب العلمية- بيروت.

بالأسباب... هذا التناقض يدل على أن إيمانه بالقضاء والقدر، وبقيمة الدنيا، وعلاقة الأسباب بالمسببات لم يرقَ إلى مستوى إيمانه بضرورة الخوف من الله والحذر من عذابه.. والله أعلم.

أركان الإيمان:

وبالإضافة إلى محدودية دوري الخوف والشوق إلى الله في زيادة الإيمان من جميع جوانبه، فإن هناك أمرًا آخر له أهميته القصوى، وهو أننا مطالبون بتحقيق أركان الإيمان في قلوبنا.

المطلوب أن نشيد بنيان الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته كاملًا، وكذلك الإيمان بالله واليوم الآخر والقدر والملائكة والكتب والرسل.

وكما قيل سابقًا فإن المعرفة العقلية لهذه الأركان لا تكفي، بل لا بد أن تمتزج معها العاطفة لتصبح إيمانًا راسخًا في القلب، تعبر عنه المشاعر ويُظهره السلوك، فيرضى العبد بقضاء الله، ويستسلم لمشيئته، ويفرح بفضله، ويأنس به، ويفزع إليه، ويهابه ويعظمه... يحب فيه، ويبغض فيه، ويغضب من أجله.

كل هذه مشاعر إيمانية لا بد من حضورها في القلب، ومما لا شك فيه أن التركيز على وسائل استجلاب الخوف أو الشوق إلى الله لا يمكنه أن يؤدي هذه الوظيفة بمفرده.

من هنا كان من الضروري تعلم الإيمان والاجتهاد في تشييد بنيانه كاملًا في القلب.

لا بد من البحث عن وسائل تؤسس القاعدة الإيمانية باتساعها لتنطلق منها

الأعمال والطاعـــات، وليعود بعد ذلك أثرها عليها فترتفع وتبني صرح الإيمان في القلب.. وهنا يأتـــي دور المعجزة الكبرى: ألا وهي القرآن الكريم الذي يقوم بهذه المهمة على خير ما يكون.

الفصل الثالث

القرآن ودوره في تأسيس القاعدة الإيمانية

القرآن ودوره في تأسيس القاعدة الإيمانية

القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة التي اختص الله عَزَّوَجَلَّ بها أمة محمد ﷺ.

هذه المعجزة هي أعظم معجزة نزلت من السماء، ويكمن سرها في قدرتها على تغيير من يُحسن التعامل معها، فيُصبح من خلالها عبدًا صالحًا مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

والتغيير الذي تُحدثه المعجزة القرآنية يشمل جميع جوانب الشخصية الإنسانية ليضعها في القالب الذي يريده الله منها.. فيغير ثوابت الإنسان ومعتقداته الخاطئة، ويبني اليقين الصحيح في عقله لتنطلق تصوراته واهتماماته في الاتجاه الذي يريده الله منه.

ومع التغيير الذي يحدثه القرآن في العقل فهو كذلك يؤسس القاعدة الإيمانية في القلب، ويُخلِّص المشاعر من الهوى وحب الدنيا؛ مما يجعله أحد أهم أسباب زيادة الإيمان إن لم يكن أهمها على الإطلاق: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢].

فالقرآن هو المنادي الذي ينادي على الناس أن أقبلوا عليّ وتزودوا مني بالإيمان: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

فالمنادي المذكور في الآية كما قَالَ مُحَمَّدُ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ: هُوَ الْقُرْآنُ، لَيْسَ كُلُّهُمْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ(١).

طريقة القرآن في زيادة الإيمان:

وطريقة القرآن في زيادة الإيمان طريقة فريدة، تشمل الكثير من الأساليب، ولا يمكن للعقل البشري القاصر أن يحيط بها، ولقد ضرب الله عَزَّوَجَلَّ لنا مثلًا للأثر الذي يمكن للقرآن أن يحدثه في الجماد ليكون مشوقًا لنا، ودافعًا للتعامل الصحيح مع القرآن والانتفاع بمعجزة:

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر: ٢١].

إن قدرة القرآن الفذة على زيادة الإيمان، وتعبيد المشاعر لله لا نظير لها، -وإليك أخي القارئ- بعضًا من الوسائل التي يستخدمها القرآن لتحقيق ذلك:

أولًا: القرآن يعرض جميع حقائق الوجود، وما ينبغي الإيمان به، وذلك بأسلوب فريد، يمزج الفكر بالعاطفة، فيخاطب العقل ويقنعه، وفي الوقت نفسه يخاطب المشاعر ويؤثر فيها لتتحول القناعة بالفكرة التي يطرحها إلى إيمان قلبي.

فعلى سبيل المثال: القرآن يبني عند المسلم عقيدة أن الله شديد العقاب، وسريع الحساب، وأنه يستطيع أن يعاقب الناس بما أحدثوه في أي وقت... هذا المعنى تكرر في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد ص (٨٥).

﴿ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩].

فالآيات تعرض هذه الحقيقة وفي الوقت ذاته تمزج الفكر بالعاطفة، وتستثير مشاعر الخوف والحذر داخل الإنسان.

وإليك مثالًا آخر يؤسس الإيمان باليوم الآخر من خلال استثارة مشاعر الخوف في القلب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢﴾ [الحج: ١، ٢].

ثانيًا: تكرار المعنى:

القرآن يكرر الكثير من المعاني التي ينبغي الإيمان بها، والتي يقوم عليها التصور الإسلامي الصحيح، وذلك في آيات كثيرة وبأساليب مختلفة؛ ليرسخ مدلولها في العقل، وتُصبح يقينًا ثابتًا فيه، ويتأكد الإيمان بها في القلب، وتشكل جزءًا ثابتًا يتشابك مع مشاعره؛ مما يسهل استثارتها في أي وقت.

فعلى سبيل المثال: الحديث عن الدنيا وقيمتها وأنها متاع الغرور، وأن الآخرة خير وأبقى، تكرر كثيرًا في القرآن، وبطرق وأساليب متعددة تخاطب الفكر، وتؤجج المشاعر، ليزداد الإيمان في القلب من خلال التجافي عنها والزهد فيها، والسعي نحو الآخرة، انظر مثلًا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨٥]. فلقد تكررت هذه الآية، ووردت بقوالب مختلفة.. كل ذلك ليرسخ مدلولها في النفس.

ثالثًا: استخدام أساليب شتى في التأثير على المشاعر: مثل المواعظ البليغة التي تنفذ مباشرة إلى قلب الإنسان وعواطفه، سواء أكان ذلك بالترغيب أم الترهيب

أم بالاثنين معًا، كقولـــه تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد: ١٥].

* ومن وســـائل التأثير على المشاعر: القصة والتي من شأنها أن تجذب عقل الإنســـان وقلبه. والناظر للقرآن يجده مليئًا بقصص الســـابقين: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ ﴾ [يوسف: ١١١].

* ومن وسائل التأثير على المشـــاعر: بيان فضل العمل وأهميته وما يعود به على الإنســـان مِن نفع، كقولِه تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

* ومنها كذلك: التذكير بالماضي وبما أنعم الله به على العبد فتستثار مشاعره تبعًا لذلك؛ مما يجعل من السهل توجيهه ودفعه إلى العمل المطلوب، كقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٦].

* ومع هذه الوســـائل يأتي ســـلطان ألفاظه الذي يأســـر النفوس كوسيلة في التأثير على المشـــاعر واســـتثارتها، وليس أدل على ذلك من الحالة التي عاشـــها المشـــركون وهم يستمعون إلى سورة النجم، ففي البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النَّبِيَّ ﷺ سَجَدَ بالنَّجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس.

رابعًا: والقرآن عندما يســـتثير المشاعر فإنه يولد طاقة في النفس تدفع صاحبها للقيام بأعمال البر المختلفة... هذه الأعمال عندما تنطلق من الإيمان الحي المتولد

من القرآن، فإن من شأنها أن تعود بالأثر الطيب على القلب بزيادة ونمو الإيمان فيه، وذلك حسب العمل الذي يقوم الإنسان به... فعندما يشرع العبد في الذكر كالتسبيح مثـلاً، ويتحرك قلبه معه فإن أثره يعود على القلـب بزيادة التعظيم لله عَزَّوَجَلَّ... أما الحوقلة فتزيد شـعوره وإيمانه بالافتقار إلى الله وعظيم الحاجة إليه، هذا بالنسبة للذكر، أما الصلاة فعندما تنطلق من القلب الحي والإيمان اليقظ ويحدث التجاوب فيها بين القلب واللسان والجوارح، فإن من شأنها أن تزيد في القلب الهيبة والإجلال والتواضع والانكسار لله عَزَّوَجَلَّ... وهكذا..

فالقرآن يبني القاعدة الإيمانية باتساعها، ويولد الطاقة، ويدفع للقيام بالأعمال الصالحة ليعود أثرها على القلب بزيادة الإيمان فيه.

أهمية القرآن:

من هنا يتضح لنا الأهمية العظمى للقرآن كمنبع عظيم للإيمان لا يعدله شيء.. هذا المنبع كفيل -بإذن الله- بتأسيس القاعدة الإيمانية في القلب باتساعها وعمقها، وفي المقابل فكتب العقيدة التي تطرح بعض ما في القرآن وتتوسع فيه لا تنشئ إيمانًا بمعناه الحقيقي الذي يرسخ في القلب ويؤسس قاعدته باتساعها فيه، ويتناول جميع مشاعره.. وكيف لا؟! وقيمة وقدر ومعجزة القرآن الحقيقية لا يمكن للعقل البشري القاصر أن يدركها: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ٣١]، وجواب الشرط هنا محذوف وتقديره: لكان هذا القرآن.

ظلمنا أنفسنا:

أخي القارئ:

لقد ظلمنا أنفسـنا أيما ظلم عندمـا لم نُعطِ القرآن حقه في تأسـيس القاعدة

الإيمانيــة داخل قلوبنا، ولم نســمح لمعجزته بالقيام بدورها فــي إحداث التغيير الجذري داخل ذواتنا.

ظلمنا أنفســنا عندما اكتفينا من هذا الكنز العظيم بالبحث عن الأجر والثواب والبركة المترتبــة على تلاوته أو حفظــه، واهتممنا بلفظه وشــكله فقط، دون أن يصاحب ذلك اهتمام بالمعنى، وتعلم الإيمان من خلاله، وتذوق حلاوته وتأسيس قاعدته في قلوبنا كما كان يفعل أسلافنا: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤﴾ [التوبة: ١٢٤].

ألم يأنِ لنا -أخي الحبيب- أن نُعطي القرآن الاهتمام اللائق به؟!

ألم يأنِ لنا أن نُحسن التعامل معه ونُعطيه الأولوية القصوى في حياتنا؟!

ألم يأنِ لنا أن نجتهد في إزالة الحُجُب التي تحول بيننا وبين الانتفاع الحقيقي به؟!

كيف نزداد إيمانًا من خلال القرآن؟

قد يقول قائل: إنني أقرأ القرآن كثيرًا ولكني لا أشعر بالتغيير أو حلاوة الإيمان التي تتحدث عنها.

نعم، أخي... شعورك حقيقي، فكُلُّنا مثلك -إلا من رحم الله- لأننا محرومون معاقبون من الله عَزَّوَجَلَّ بســبب مــا فعلناه مع هــذا الكتاب العزيــز من تعاملات وممارَســات خاطئة، والأمر لم يبدأ من جيلنا، بل من قديم، منذ أن تَوَجَّه الاهتمام إلى غير القرآن، واقتصر التعامل معه على حِفظ حروفه، والإكثار من تلاوته، بِفَهم وبدون فهم لتحصيل الثواب والأجر.

حين تم التعامل مع القرآن بغير ما ينبغي أن يتم التعامل معه من تقدير ومهابة؛ كان العقـــابُ المتوالي والمتصاعد من الله عَزَّوَجَلَّ، وأخطر تلك العقوبات: تخفيف القرآن، وإبعـــادُ روحه عن ألفاظه، فصرنا نقرأ كلماتٍ بـــلا رُوح، لا تُؤَثِّر فينا، ولا تُحدِث الزلزال المصاحب لروحه، وغاية ما نتأثر به هو وَقْعُ تلك الكلمات وما فيها من وَعْدٍ أو وَعيد أو أســـاليب متنوعة تُثير المشـــاعر، وتصورنـــا أن هذا هو التأثر المطلوب والحال الصحيح.

نعم.. هذا هو جوهر مشكلتنا مع القرآن.. تخفيف قدره في قلوبنا، ونزع مهابته من صدورنا، فتحول من كونه كلامًا ثقيلًا إلى قول خفيف؛ ومن ثم أصبح يقرأ كأي كلام آخـــر.. بل أقل.. فتجدنـــا ندخل إليه ونحن غير عابئيـــن أو مهتمين بالانتفاع الحقيقي به، وغير مستشعرين حاجتنا إليه..

إن حالنـــا ينطبق إلى حد كبير مع مـــا أخبرنا به رســـول الله ﷺ حين قال: « **سَيَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَشْرَبُونَ الْقُرْآنَ كَشُرْبِهِمُ الْمَاءَ** »[1].

وفـــي هذا المعنى يقول عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كُنَّا صَدْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ خِيَارِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا مَعَهُ إِلَّا السُّورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ شِبْهُ ذَلِكَ، وَكَانَ الْقُرْآنُ ثَقِيلًا عَلَيْهِمْ وَرُزِقُوا الْعَمَلَ بِهِ، وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُخَفَّفُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ حَتَّى يَقْرَأَهُ الصَّبِيُّ وَالْأَعْجَمِيُّ فَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ »[2].

ونكرر بأن المقصد مـــن تخفيف قدر القرآن: أي تخفيـــف مهابته وقيمته في

(١) فضائـــل القرآن للفريابـــي (ص: ٢٠٣ برقم: ١٠٩)، والمعجم الكبيـــر (١٧/ ٢٩٧ برقم: ٨٢١)، بلفظ: سيخرج أقوام من أمتي يشربون القرآن كشربهم اللبن.
(٢) أخلاق حملة القرآن للآجري (ص: ٩٨ برقم:٣٢).

القلــب، فيدخل إليه المرء وهو غيــر عابئ بالانتفاع الحقيقي به، وغير مستشــعر لحاجته إليه، فتكون العقوبة: أن يُفتح له القرآن أكثر، فتنســاب ألفاظه سريعًا على لسانه... وهكذا.

ويؤكد ذلك قول معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « سَــيَبْلَى الْقُرْآنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ كَمَا يَبْلَى الثَّوْبُ، فَيَتَهَافَتْ يَقْرؤونَهُ لَا يَجِدُونَ لَهُ شَهْوَةً وَلَا لَذَّةً «[1].

نعم، أخي، هذه هي الحقيقة.. لقد أصبح القرآن غريبًا بيننا، شأنه شأن الإسلام الذي أرســل به محمد ﷺ، وعلينا أن نسعى لإزالة تلك الغربة، بإزالة مسبباتها في أنفسنا أولًا، ودعوة المسلمين لذلك.. ولقد تم تفصيل هذا الأمر في مواضع أخرى بفضل الله..[2].

علينا أن نبدأ من الآن في العمل على إعادة مهابة القرآن في قلوبنا، وإزالة الحجب التي تحول بيننا وبينه.

أخي:

إن تحويل وجهة تعاملنا مع القــرآن، وتغيير القصد، ليكون الانتفاع بمعجزته الحقيقية ووظيفته المتفردة في الهداية والشــفاء والتغيير، لهو أمر ضروري وحتمي إن أردنا الاستمساك الحقيقي به، وتحصيل الهدف من نزوله.

ومما تجدر الإشــارة إليــه أن تحويل وجهة تعاملنا مع القــرآن نحو تحصيل الهداية الشاملة والشفاء التام والتغيير الكامل أمر شاق يحتاج إلى صبر ومصابرة..

---

(١) الدارمي (٤/ ٢١٠٧ برقم: ٣٣٨٩).

(٢) مثل: كتاب «غربة القــرآن»، «والطريق الوحيد لعودة الإســلام الكامل الصحيح» (تحت الطبع).

ومن باب التواصي بالحق والتواصي بالصبر، فهناك بعض الوسائل التي تسهم -بإذن الله- في رحلة العودة إلى القرآن وتنمية قدره في قلوبنا، وزيادة الإيمان من خلاله.

وقبل الحديث عن تلك الوسائل لا بد من إعادة التذكير بأن زيادة الإيمان تعني تحرك القلب، وانفعال المشاعر مع القراءة.

معنى ذلك أن القراءة التي نقرؤها الآن بدون فهم ولا تدبر ولا تأثر لن تزيد إيماننا ولو ختمنا القرآن آلاف المرات.

وفي الوقت نفسه، فإن القراءة بفهم وتدبر عقلي دون أن يصحب ذلك تأثر وتحرك قلبي فهذا أيضاً لا يزيد الإيمان... فلا بديل من التأثر والتفاعل مع القراءة إن أردنا زيادة الإيمان وبناء قاعدته في القلب.

معنى ذلك أن هدفنا الذي سنسعى إليه من خلال لقاءاتنا المتكررة مع القرآن هو التأثر، وبدهي أن التأثر لن يتم إلا إذا كان هناك فهم وتفكر.

إذن ينبغي أن يكون شعارنا عند كل لقاء مع القرآن: أن نفهم ما نقرأ ونجتهد في التأثر به.

يَقُولُ ابْنُ مَسْعُودٍ: لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ هَذَّ الشِّعْرِ، وَلَا تَنْثِرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَقِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ[1].

مع الأخذ في الاعتبار أن تأثرنا الحالي مع آيات القرآن ما هو إلا تأثر محدود

(١) الهذ: سرعة القراءة بغير تأمل، وقوله نثر الدقل أي: كما يتساقط الرطب الرديء اليابس من العذق إذا هز.. زاد المعاد (١/ ٣٤٠).

للغايــة بالمقارنة بما ينبغي أن يكون عليه التأثر، وقبل أن تُبدي اعتراضك على هذا الكلام وتنفيه عن نفسك؛ تذكر عتاب الله عَزَّوَجَلَّ للصحابة حين نقص خشوع وتأثر بعضهم بالقرآن.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

فماذا نقول بعد ذلك؟!

ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؟! [الزمر: ٢٣].

الوسائل المعينة:

لكــي تتحقق مــن خلال القرآن زيــادة الإيمــان؛ ومن ثم القــرب من الله، والاستقامة على أمره، لا بد من التأثر به، والانفعال معه، وهناك بعض الوسائل التي من شــأنها أن تأخــذ بأيدينا -بمشــيئة الله- وتصل بنا إلى مرحلــة بدايات التأثر والانفعال واستحواذ القرآن على مشاعرنا.

أُولى هذه الوسائل: الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح:

لكي تتم لنا الاســتفادة من القرآن ويكون دليلًا يهدينا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وســببًا يقربنا إليه ويصلنا به، ودواءً نستشفي به من أمراضنا، ومصدرًا متفردًا لزيادة الإيمان فــي قلوبنا، وجلاءً للهموم والغموم والأحزان.. لكي يتم لنا كل هذا وغيره.. لا بد من الدخول إليه من بابه الصحيح.

إن الباب الأوحد للانتفاع بالقرآن وتحقيق مراد الله بنزوله يســتلزم الاعتقاد

الجازم أنه المصدر المتفرد الذي لا مثيل له لتحصيل الهداية الشاملة، والشفاء التام، والعلم النافع، والتغيير الجذري، وأن يتم التعامل معه بناء على هذا الاعتقاد، بما تعبِّر عنه عبارة «**الإيمان قبل القرآن**».. أي: الإيمان بأن القرآن هو المصدر الوحيد للهداية الشاملة التامة وأنه لا يمكن تحصيلها بدونه.

والإيمان بأن القرآن هو الدواء الناجع المتفرد لشفاء القلب وعودته إلى صحته وفطرته.

والإيمان بأن القرآن هو المصدر الأسمى للعلم النافع المقرب إلى الله، والمورث لخشيته، وأنه لا يوجد مصدر آخر يضاهيه أو يقترب منه.

والإيمان بأن القرآن هو القادر -بإذن الله- على تغيير أي إنسان، ومن أي وضع سلبي هو فيه إلى الحال الذي يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، فيلحقه بصفوف عباد الله الصالحين المصلحين.

علينا أن نستحضر هذا المعنى حين ندخل إلى القرآن.. فالغاية من نزول القرآن هو: تحصيل الهداية التامة والشفاء الكامل والتغيير الجذري.. فينبغي أن يكون منطلق علاقتنا بالقرآن مرتبطًا بهذه الغاية.. ويكون الهدف الأول من اللقاء معه تحصيل هدايته وشفائه.

ثانيًا: الانشغال بالقرآن وطول المكث معه والالتزام قدر الإمكان بوِرد زمني:

المقصود من الانشغال بالقرآن أن نُعطيه الأوقات الطويلة في يومنا، مع المداومة على ذلك مهما كانت الظروف، ولنعلم جميعًا أنه على قدر ما سنعطي للقرآن سيعطينا.

علينا أن نلزم أنفسنا بورد يومي نقرؤه كل يوم.. ويفضل ألا يكون محددًا بكم معين، بل نحدده بزمن كساعة أو ساعتين.

فلو حددنا وردنا بجزء أو جزءين -مثلًا- فإن هذا قد يدفعنا لسرعة القراءة دون مراعاة لتحصيل ما ألزمنا به أنفسنا؛ مما يبعدنا عن الهدف المنشود.

فإن قلت: وهل يكون الورد الزمني متصلًا أم منفصلًا؟

مما لا شك فيه أن مكث الواحد منا مع القرآن، ولو لمدة ساعة -على الأقل- متصلة وبصورة يومية، سيكون له بمشيئة الله الأثر الطيب، أما إذا قرأنا الورد في فترات متقطعة؛ على عدة مرات في اليوم، بحيث لا تتجاوز مدة المرة الواحدة ربع أو ثلث الساعة، فإن هذا من شأنه أن يؤخر عملية التأثر والتفاعل مع القراءة -والله أعلم- فالمشاعر تحتاج إلى وقت طويل نسبيًّا -وبخاصة في البداية- حتى تلين، وترق، وتتأجج وتتفاعل مع القراءة، فإذا بدأنا قراءتنا ثم أنهيناها بعد وقت قصير ففي الغالب ستكون هذه الفترة التحضيرية غير كافية لحدوث التأثر.

إذن علينا أن نجلس مع القرآن فترة متصلة. وأن نسمح للآيات بأن تنساب داخلنا؛ ليتصاعد تأثيرها على المشاعر شيئًا فشيئًا؛ ليحدث بعد ذلك الاتصال بين القرآن والقلب؛ ومن ثمَّ الوصال مع الله عَزَّوَجَلَّ.

ثالثًا: التهيئة الذهنية:

مما لا شك فيه أن تهيئة الذهن لاستقبال القرآن وفهمه لها دور كبير في التأثر به، وهذا يحتاج إلى أن يكون لقاؤنا مع القرآن في مكان هادئ بعيد عن الضوضاء، وأن يكون في وقت لا نشعر فيه بالتعب والنعاس، وأن يكون كذلك بعيدًا عن الناس..

فإن قلت: وما السبب في البعد عن الناس والاختلاء بالقرآن؟!

كان الجواب -بعون الله- بأن هذا أدعى لحـــدوث التأثر، ومن ناحية أخرى فإنه عندما يمن الله علينا بالتأثر والتجاوب مع الآيات، فإن هذا من شأنه أن يدفعنا للبكاء والدعاء والتضرع إلى الله، وهذا بلا شك لا يصلح أن يظهر أمام الناس، فإن قاومنـــا هذه الأمور ولم نظهرها أمام الناس كانت النتيجة ضعف تأثير القرآن علينا، وإن أظهرناها فإننا بذلك نفتح باب فتنة عظيمة أمام أنفسنا.. فالحل هو الجلوس في مكان هادئ بعيد عن الأعين. ومع المكان الهادئ لا تنسَ كذلك السواك والوضوء.

رابعًا: التهيئة القلبية:

كما قيل في الصفحات الســـابقة بأن هدفنا الأسمى من لقائنا بالقرآن تحصيل الهداية والشـــفاء والتغيير الشامل، وهذا يستلزم التأثر الذي يزداد به الإيمان كبداية لتحقيق هذا الهدف... هذا التأثر والتجاوب بين القلب والقرآن من الصعب بعض الشـــيء حدوثه في بداية رحلة العودة الحقيقية إلى القرآن، فالإيمان مخدَّر ونائم، ويحتاج إلى إيقاظ أولًا؛ لتزداد مساحته بعد ذلك من خلال القرآن... من هنا اشتدت الحاجة لاستخدام وسائل إيقاظ الإيمان -وبخاصة في البداية؛ ولقد تم بفضل الله الحديث المجمل عن أهمية اســـتخدام ســـياط الخوف من اللـــه لإيقاظ الإيمان المخدَّر في القلـــب[1]، ولا يعني هذا أن نتوقف عن قـــراءة القرآن حتى يتم إيقاظ القلب، بل يمكننا أن نســـير في الاتجاهين معًا، وذلـــك من خلال تهيئة القلب قبل

(١) بفضـــل الله تعالى هنـــاك فصل كامـــل في كتـــاب «الإيمـــان أولًا» يتناول هـــذا المعنى «شدة الخوف من الله»، والكتاب متوفر على موقع الإيمان أولًا على الشبكة الإلكترونية: *www.alemanawalan.com*

القراءة، مع العلم بأنه بعد فترة ليست بالقصيرة، وبعد حدوث حالة اليقظة والانتباه القلبي لن نكون بحاجة كبيرة إلى استخدام تلك الوسيلة.. والله أعلم.

نكرر بأن معنى التهيئة القلبية هي تهيئة القلب لاستقبال القرآن، وذلك من خلال تهيئة مشاعره وتوجيهها لسماع الخطاب القرآني؛ ومن ثمَّ سهولة تأثرها به، وانفعالها معه كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥].

نعم، بعد طول المكث مع القرآن ويقظة القلب، ستنتقل المشاعر من حالة القسوة والجمود إلى الرقة واللين، ولن ينقصها حينئذٍ سوى اللقاء بالقرآن ليحدث الوصال والانفعال والتأجج، وهذا هو المقصد من القول بأن التهيئة القلبية وسيلة نحتاج إليها -بإذن الله- في بداية عودتنا إلى القرآن، ومما يؤكد هذا المعنى حديث رسول الله ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا، وَتَغَنَّوْا بِهِ، فَمَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِهِ فَلَيْسَ مِنَّا**»(١).

كيف تتم التهيئة القلبية؟

هناك طريقتان للتهيئة القلبية:

أولاهما: الاستفادة من أوقات استثارة المشاعر التي تحدث خلال اليوم بصورة طبيعية عند قراءة أو رؤية أو الاستماع لخبر أو حادث تنفعل معه المشاعر، عند ذلك فإننا حين نقرأ القرآن ونحن بهذه الحالة من التأثر سيكون له أثر طيب وسريع في تجاوب المشاعر مع القراءة، ولنا في قصة إسلام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبلغ المثال لهذه الطريقة؛ فلقد رقت مشاعره عند رؤية الدم يسيل على وجه

(١) أخرجه ابن ماجة (١/ ٤٢٤، برقم ١٣٣٧) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٩١ برقم: ٢١٠٥٨).

أخته... في هذا الوقت استمع للقرآن فانفتح قلبه وانشرح للإسلام.

والثانية: أن نعمل على استثارة المشاعر ولو لبضع دقائق قبل القراءة، وذلك من خلال تذكر الموت أو الاستماع إلى موعظة، أو القراءة في كتاب من كتب الرقائق، ولا ينبغي لأحد منا أن يهمل هذه الوسيلة، ويتجه مباشرة إلى القراءة دون تهيئة قلبية -وبخاصة في البداية- فهذا من شأنه أن يؤخر التجاوب بين القلب وبين القرآن.

ومما يؤكد أهمية تلك الوسيلة، النصيحة التي نصحنا بها رسول الله ﷺ كي نخشع في صلاتنا بقوله: «**اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا**»(١).

فتذكُّر الموت، واستشعار أننا نصلي صلاة مودع للدنيا له أثر كبير في حضور قلوبنا وخشوعها وتجاوبها مع الصلاة... وهذا ما نريد فعله مع القرآن.. أن نتذكر الموت قبل تلاوة القرآن ليكون ذلك مدعاة لسرعة التأثر والتجاوب مع الآيات.

ومما يهيئ المشاعر أكثر للاستثارة والتأجج: التباكي مع الآيات.

خامسًا: الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة:

من الوسائل المعينة على سرعة التأثر: القراءة الصحيحة وسلامة النطق، وهذا يستلزم تصحيح النطق بالآيات، وتعلم أحكام التلاوة دون تكلف أو إفراط، وكذلك علينا القراءة بصوت مسموع، والترتيل، مع تحسين الصوت قدر الإمكان، فهذه

(١) رواه البيهقي في الزهد (برقم: ٥٢٧)، وحسنه ابن حجر كما في المقاصد الحسنة للسخاوي (ص: ٢٢٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ١٤٢١).

الأمور لها دور عظيم في سرعة استثارة المشاعر، قال ﷺ: «**زَيِّنُواْ الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ؛ فَإِنَّ الصَّوْتَ الحَسَنَ يَزِيدُ الْقُرْآنَ حُسْنًا**»(١).

قال الزبيدي: إن الصوت الحسن يزيد القراءة حسنًا، وفي أدائه بحسن الصوت وجودة الأداء بعث للقلوب على استماعه وتدبُّره، والإصغاء إليه(٢).

ومع الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة، لا بد كذلك من القراءة الهادئة المترسلة.

ولقد كان هذا هو هدي النبي ﷺ، كما تقول أم المؤمنين حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في وصفها لقراءته ﷺ: «... **وَكَانَ يَقْرَأُ بِالسُّورَةِ فَيُرَتِّلُهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِنْ أَطْوَلَ مِنْهَا**»(٣).

فإن قلت: ولكني تعودت على أن أقرأ بعيني دون صوت، وأفهم بذلك ما أقرؤه.

نعم، القراءة بالعين فقط قد تؤدي إلى الفهم، لكنها من الصعب أن تؤدي إلى التأثر المطلوب؛ لأن الصوت المسموع الذي يراعي أحكام الترتيل من غُنَّة ومد وإخفاء وإظهار له دور كبير في مخاطبة المشاعر وتحريكها؛ ومن ثمَّ سرعة الوصول لمرحلة التأثر المنشود -بإذن الله.

---

(١) ورواه أحمد (٣٠/ ٤٥١ برقم: ١٨٤٩٤)، وابن ماجة (٢/ ٣٦٦ برقم: ١٣٤٢)، وأبو داود (٢/ ٥٩٤ برقم: ١٤٦٨)، والنسائي (٢/ ١٧٩ برقم: ١٠١٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٦٨ برقم: ٢١٢٥)، واللفظ له، وصححه ابن حجر في التلخيص الحبير (٤/ ٣٦٨ برقم: ٢٦٥٠)، والألباني في السلسلة الصحيحة (برقم: ٧٧١).

(٢) إتحاف السادة المتقين (٤/ ٤٩٧).

(٣) رواه مسلم (١/ ٥٠٧ برقم:٧٣٣).

سادسًا: فهم ما نقرأ:

لكي نصل -بعون الله وفضله- إلى مرحلة التأثر بمعاني ما نقرؤه لا بد أن نُعمل عقولنا فيه، وأن نجتهد في فهـــم الخطاب القرآني ولو بصورة إجمالية.. فمن البدهي أننا لن نتأثر بشيء لا نفهمه، كما قال تعالى واصفًا حال الأعاجم حين يسمعون القرآن: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء:١٩٨،١٩٩].

والذي يتأثر منهم بسماع القرآن دون معرفته بمعانيه فإنما يتأثر بنغمته وجرسه وإيقاعه.

إذن علينـــا أن نتعامل مع القرآن على أنه كتاب باللغة العربية التي نفهمها ونقرأ بها الكتب الأخرى.

علينا -إذن- أن نُعمل عقولنا في فهم ما نقرأ من القرآن، كما نُعملها في فهم ما نقرأ من أي كتاب آخر.

علينا أن نفهم ما نقرؤه بيُسر ودون تكلف ولا تعسف، فأغلب الآيات واضحة المعنى، ومن السهل فهمها.. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

نعم، قد يكون الفهم محدودًا، وســـطحيًّا، وهذا لا بأس به -ولو في البداية-؛ لأن الفهم وحده ليس هو المقصود، بل المقصود هو التأثر، فقد يفهم شخص (ما) آية بفهم محدود لكنـــه يتأثر بها تأثرًا عظيمًا، وقد يفهم آخر نفس الآية بفهم عميق، ولكن دون تأثر... فالأول بلا شك هو الذي سينتفع بالقرآن ويزداد إيمانًا، أما الثاني فسيزداد به -فقط- معرفة تظل حبيسة عقله دون أن يكون لها أثر في سلوكه لأنه لم يتجاوب معها بقلبه.

إن التأثر القلبي متاح أمام الجميع، ولا يستلزم ثقافة معينة أو فهمًا عميقًا، بل يستلزم انفعال القلب مع ما تدل عليه الآيات، حتى وإن كان مقدار فهم صاحبها لها محدودًا.

تأمل معي ما حدث للأعرابي الذي كان في مجلس رسول الله ﷺ، فاستمع منه إلى قوله تعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨** ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِثْقَالُ ذَرَّةٍ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاسَوْأَتَاهُ. مِرَارًا، ثُمَّ قَامَ وَهُوَ يَقُولُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَقَدْ دَخَلَ قَلْبَ الْأَعْرَابِيِّ الْإِيمَانُ**»(١).

لقد دخل الإيمان قلب الأعرابي عندما تأثر بهذه الآيات بالرغم من فهمه الإجمالي لها.

سابعًا: أن نكتفي بالمعنى الإجمالي للآيات:

لكي يحدث التأثر والتجاوب القلبي مع الآيات لا بد من الاستمرار في القراءة وعدم قطعها، وأن نسمح للآيات بأن تنساب داخلنا ويستمر تأثيرها شيئًا فشيئًا حتى نصل لمرحلة التأثر.

فإن قلت: وماذا أفعل لو وجدت أمامي كلمة لا أعرف معناها؟!

لو قطعنا القراءة من أجل النظر في كتب التفسير لمعرفة معناها لانقطع حبل التأثر، ولما وصلنا للهدف المنشود.

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ٢٧٨).

لا بد -إذًا- من الاستمرار في القراءة، فإن أشكل علينا فهم كلمة أو كلمتين في آية من الآيات فلا بأس بأن نكتفي بالمعنى الإجمالي لها، فإن لم نستطع فهم معناها الإجمالي فلنتجاوزها إلى غيرها، فمما لا شك فيه أن القدر الذي سنفهمه من الآيات أكبر بكثير من القدر الذي لن نفهمه، ولقد دلنا رسولنا ﷺ على قريب من هذه الطريقة بقوله: «... **إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ، فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ، فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ**»(١).

ويؤكد على هذا المعنى الحسن البصري فيقول في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ**﴾ [البقرة: ١٢١]، قال: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه(٢).

ولا بأس بالعودة لكتب التفسير بعد ذلك لمعرفة أي معنى من المعاني التي صعب علينا فهمها، أو أحكام شرعية دلت عليها الآيات.

ثامنًا: التجاوب مع القرآن:

القرآن خطاب مباشر من الله عَزَّوَجَلَّ لجميع البشر: لي، ولك، ولغيرنا.. هذا الخطاب يشمل من ضمن ما يشمل: أسئلة وأجوبة، ووعدًا ووعيدًا، وأوامر ونواهي. فعلينا أن نتجاوب مع الخطاب القرآني بالرد على أسئلته، وتنفيذ ما يدل عليه من تسبيح أو حمد أو استغفار أو سجود، وعلينا كذلك التأمين على الدعاء، والاستعاذة من النار، وسؤال الجنة كلما مر ذلك علينا، ولقد كان هذا من هدي رسول الله ﷺ، وصحابته الكرام.

---

(١) رواه أحمد في المسند (١١/ ٣٠٥ برقم: ٦٧٠٢) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وصححه الأرناؤوط.

(٢) فضائل القرآن للرازي (ص: ١٢٦).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ السَّـائِبِ، قَالَ: أَخَّرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ فَصُلِّيَتْ، وَدَخَلَ فَكَانَ فِي ظَهْرِي، فَقَرَأْتُ: ﴿وَالذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١﴾ [الذاريات: ١] حَتَّى أَتَيْتُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢] فَرَفَعَ صَوْتَهُ حَتَّى مَلَأَ الْمَسْجِدَ: «أَشْهَدُ»[(١)].

وسمع عبد الله بن مسـعود رجلًا قرأ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١].

قال: إِي وَعِزَّتِكَ، فَجَعَلْتُهُ سَمِيعًا بَصِيرًا، وَحْيًا وَمَيِّتًا[(٢)].

وعن أبي عمارة الكوفي -عبد خير- أنه سـمع عليًّا قرأ في الصلاة: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، فقال: سبحان ربي الأعلى[(٣)].

فعلينا المداومة على اسـتخدام هذه الوسـيلة والتي سـنجد لهـا أثرًا عظيمًا -بمشيئة الله- في دوام يقظة العقل، وسرعة تجاوب القلب.

تاسعًا: ترديد الآية التي تؤثر في القلب:

كل الوسائل السابقة من شأنها أن تُسرع بنا الخطى نحو التأثر والانفعال بآيات القرآن، ومع هذا كله فإن التأثر أمر لا نقدر على تحصيله في الوقت الذي نشـاؤه، فهـو منحة من الله عَزَّوَجَلَّ، ومـا علينا إلا أن نهيئ قلوبنا له، ونتخذ الأسـباب التي تؤهلنـا لتلك المنحة... هـذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فـإن آيات القرآن كلها نور... هذا النور يحاول دائمًا اختراق القلب كلما قرأ المرء أو استمع للقرآن، ولكن

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٤٩).
(٢) المصدر السابق (ص: ١٥٠).
(٣) المصدر السابق (ص: ١٥٣).

مع سُـحب الظلمات والغفلات التي تحيط بالقلب، ومع قسوة المشاعر، فإن هذا النور قد يجد صعوبة في الوصول إلى القلب وهز مشـاعره، وفي الوقت نفسه فإنه بالمداومة على الوسائل السابقة، ومع التهيئة القلبية التي اجتهدنا في تحصيلها قبل القراءة ستأتي -بفضل الله- لحظات سـعيدة يتم فيها اختراق بصيص أو أثر يسير من نور آية أو آيات للسُّحب المحيطة بالقلب، فتنفذ إليه، وتُحرك مشاعره، وتهزها ليحدث التفاعل، والتجاوب والوصال، ويزداد الإيمان.

هـذه اللحظات التي يتحرك فيهـا القلب تُعد بمثابة بدايـات الحياة الحقيقية للإنسان، وعلى قدرها يُحسب عمره الحقيقي.

فإن كان الأمر كذلك، فماذا نفعل وقت حدوث ذلك التفاعل والتجاوب؟

علينا أن نغتنم الفرصة التي جاءتنا، فنسمح لهذا البصيص أو الأثر اليسير للنور بدخول القلب لعله يسهم -بإذن الله- في تخليص مشاعرنا من أسر الهوى، وزيادة الإيمـان في قلوبنا، وذلك من خلال ترديد تلك الآيـة أو الآيات التي حدث معها التجاوب.

علينا ألا نبخل على أنفسنا بزيادة أمد لحظات السعادة والاتصال بالله.

علينا أن نرددها ما دام وُجِد التجاوب، ولا نتوقف إلا بعد أن يخفت، ثم ننتقل لما بعدها من آيات، وننتظر لحظات سـعيدة أخرى مع آية جديدة يتجاوب القلب معها.

أخي الحبيب:

تخيـل لو أن الماء قـد انقطع عن بيتك يومًا أو يومين، ثـم جاء في لحظة من

اللحظات وأنت ظمآن، هل ستشرب ما يكفيك فقط ثم تغلق الصنبور، أم ستستغل الفرصة وتملأ كل ما يمكنك ملؤه من أوعية تحسُّبًا لانقطاعه مرة أخرى؟

إن لحظات زيادة الإيمان في قلوبنا أهم من لحظات مجيء الماء بعد انقطاعه بمراحل، فلنعمل على الاستفادة منها بأقصى ما نستطيع، وذلك من خلال ترديد الآية التي تؤثر في القلب مع الدعاء والبكاء كما كان يفعل رسول الله ﷺ وصحابته الكرام.. كان أحدهم يردد آية واحدة طيلة الليل حتى يصبح.

عاشرًا: استصحاب معنى إيماني يتم تتبعه فترة طويلة:

الوسائل السابقة من شأنها -بإذن الله- أن تزيد الإيمان في القلب شيئًا فشيئًا، ومع ذلك تبقى وسيلة أخرى يمكنها أن تقوم بدور جديد في تثبيت أركان الإيمان، وتشييد بنيانه شيئًا فشيئًا.

نعم، القراءة المستمرة -بما تم ذكره بفضل الله- تقوم بهذا الأمر، ولكن لو أضفنا إلى ذلك التركيز بصفة خاصة على حقيقة من حقائق الإيمان، وتتبعناها في وردنا القرآني -ولو خلال ختمة واحدة- فإن ذلك من شأنه أن يُسرع الخطى نحو بناء اليقين بتلك الحقيقة في عقل الإنسان، وفي الوقت نفسه يجعل القلب أكثر تأهلًا واستعدادًا للتأثر بها أكثر من غيرها، فإن صاحب ذلك عمل يقوم به الواحد منا طيلة فترة تركيزه على هذا المعنى الإيماني؛ فلا تسل عن عمق الإيمان ومدى رسوخه في قلبه، والذي سينعكس سريعًا على سلوكه وعلاقاته بمن حوله.

فإن قلت: نريد توضيحًا لهذه الوسيلة، ونماذج للمعاني التي سنبحث عنها، والواجبات العملية التي سنقوم بها.. كانت الإجابة في الصفحات القادمة بمشيئة الله.

الفصل الرابع

كيفية بناء الإيمان من خلال القرآن

كيفية بناء الإيمان من خلال القرآن

تم الحديث بفضل الله في الفصول السابقة عن حقيقة الإيمان، ومعنى زيادته ونقصانه ودور العمل الصالح في ذلك، وتم بيان دور القرآن العظيم في زيادة الإيمان، مع استعراض بعض الوسائل المعينة -بإذن الله- على تذوق الإيمان من خلال قراءتنا للقرآن، وفي هذا الفصل سيكون الحديث بمشيئة الله عن كيفية بناء الإيمان من خلال القرآن، وذلك بالبحث عن «مدلول معنى من المعاني الإيمانية» خلال رحلتنا المباركة مع المصحف والتي تبدأ من سورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس.

والهدف من ذلك التركيز أكثر وأكثر مع القراءة، واستثارة الهمم، وسرعة وعمق الاستفادة من القرآن، وتذوق حلاوته، وانعكاس ذلك على السلوك.

تخيل لو أن شخصين دخلا مكتبة عامة للقراءة؛ أحدهما يبحث عن موضوع معين، والآخر لا يبحث عن شيء محدد، ومكث الاثنان بعض الوقت.. أما الأول فظل يبحث عن الكتب التي تخدم موضوعه، ويقرأ سريعًا فيها، والثاني ظل يتنقل بين الكتب في الأقسام المختلفة... يقلب صفحات كتاب أعجبه اسمه، وينظر في فهرس كتاب آخر، ويتأمل الصور في كتاب ثالث... بلا شك أن الاثنين استفادا من وجودهما في المكتبة في هذه الفترة، ولكن يا ترى أيهما أكثر استفادة؟ أليس الشخص الأول؟

إن القرآن مليء بالكنوز والعلوم والمعاني الإيمانية، ومما لا شك فيه أن أي شخص يدخل إليه ويتعامل معه على حقيقته فسيستفيد منه استفادة كبيرة، فالقرآن كتاب كريم، يُكرم كل من يجلس معه، ولكن لو قام الواحد منا بالبحث عن موضوع محدد، ومعنى من المعاني الإيمانية، وتتبع الآيات التي تتحدث عن مدلول هذا المعنى، فإن هذا من شأنه أن يرسخ هذا المعنى في عقله ليصبح يقينًا عنده، مع سرعة تجاوب قلبه معه بصورة أسرع من التجاوب مع الآيات الأخرى؛ ومن ثَمَّ يستحوذ هذا المعنى على جزء من مشاعره ليزداد تبعًا لذلك قدر الإيمان الراسخ في قلبه.

بناء العقيدة:

لقد كان القرآن في السابق ومع الأجيال الأولى هو الوسيلة الأساسية لبناء العقيدة الصحيحة الصافية عند المسلم، ولكن بمرور الوقت، وابتعاد الأجيال اللاحقة عن القيمة الحقيقية للقرآن، وهجر الانتفاع به، تحولت العقيدة إلى كلام نظري تمتلئ به الكتب ما بين قواعد وأصول وشروح وحواشٍ ومختصرات؛ مما أدى إلى تضخيم الجانب المعرفي دون أن يصاحب ذلك إيمان حي في القلب، فكانت النتيجة ابتعاد الواقع عن الواجب، والعمل عن العلم.

من هنا اشتدت الحاجة إلى العودة مرة أخرى إلى القرآن لتعلم الإيمان وبناء العقيدة التي تجمع بين اليقين العقلي والإيمان القلبي، ويظهر أثرها في السلوك العملي بالاستقامة على أمر الله، ومن الوسائل المعينة على ذلك تتبع معنى من المعاني الإيمانية خلال رحلتنا مع تلاوة القرآن كوسيلة سهلة ومتدرجة لبناء العقيدة الصحيحة.

فعلى سبيل المثال: صفة الوحدانية لله عَزَّوَجَلَّ أفاض القرآن في الحديث عنها وبأساليب مختلفة ومتنوعة تخاطب العقل فتقنعه، وتستثير العاطفة فتزيد الإيمان بها في القلب.. هذه الصفة لو تتبعها الواحد منا في رحلته مع تلاوة القرآن وعاش مع ما تدل عليه الآيات بفكره وعاطفته لتمكن مدلولها في يقينه، ولرسخت في إيمانه؛ مما يؤدي إلى ظهور آثارها عليه في سلوكه وبصورة تلقائية.. كل ذلك يتم بسهولة ويسر دون الحاجة إلى قراءة البحوث المطولة التي تمتلئ بها المكتبة الإسلامية والتي تتناول مسائل العقيدة والتوحيد.

المعجم المفهرس:

فإن قلت: ولكن يمكننا إحصاء الآيات التي تتناول المعنى الإيماني المراد معرفته من خلال البحث عنها في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن فنختصر بذلك الوقت.

نعم، هذا من الممكن أن يتم، ولكنه لن يأتي بالثمار المطلوبة من عملية التغيير القرآني، فتتبع الآيات في المصحف، والعيش في أجوائها، وتكرار المعنى بصورة مختلفة، والانفعالات التي قد تصاحبها... كل هذا من شأنه أن يعيد تشكيل العقل، ويرسِّخ المعنى في اللاشعور، ويبني فيه اليقين الصحيح، مع زيادة الإيمان في القلب؛ مما سينعكس أثره على السلوك بصورة إيجابية، وهذا بالتأكيد لن يحدث إذا ما قرأ المرء الآيات التي تخص الموضوع من كتاب آخر، والتي قد يعيش في أجوائها عند قراءتها، ثم يعود بعد ذلك لسابق عهده دون أن يرسخ فيه هذا المعنى.

ربط القرآن بالحياة:

ولكي تَحسُن استفادتنا أكثر وأكثر بهذه الطريقة علينا أن نربط هذا المعنى

الإيمانـــي الذي نعيش معه فـــي رحلتنا المباركة مع القـــرآن بأعمال مصاحبة ذات ارتباط وثيق به، فكما قيل ســـابقًا: إن العمل بالنسبة للإيمان كالماء للزرع، والزيت للســـراج... فعلى سبيل المثال: عندما نبحث في القرآن ونتعرف على الله الوهاب المنعم يمكننا أن نســـتصحب في هذه الفترة وســـائل عملية عديدة، ككثرة الحمد، وسجود الشكر، وإحصاء النعم.

نعم، هذه الأمور ينبغي أن يفعلها المســـلم في كل أوقات حياته، ولكن التركيز عليها بصفة خاصة في هذا الوقت له أثره الطيب والفعال في رســـوخ الإيمان بهذا المعنى في قلبه.

المدة المقترحة:

إذا ما كانت رحلات المسلم مع كتاب ربه تبدأ من سورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس، فلتكن من سمات كل رحلة البحث عن معنى جديد من المعاني التي تؤسس القاعدة الإيمانية في القلب، وتبني اليقين في العقل، فإذا ما انتهت الختمة وشعر أنه لا يزال بحاجة إلى الاستمرار في التعامل مع هذا المعنى فلا بأس من رحلة جديدة يستصحبه فيها.

مـــع التذكير بأننا لا نريد معرفة عقلية فقط، بل لا بد من تجاوب القلب مع هذه المعرفة، وإلا لما ظهرت الثمرة المرجوة.

ونكرر ما قيل ســـابقًا بأن اتخاذ هذه الوسيلة واستصحاب معنى إيماني نعيش معـــه خلال رحلتنا مع المصحف، ليـــس معناه ترك التفاعل مـــع بقية الآيات التي تتحدث عن معانٍ إيمانية أخرى، بل المطلوب هو فهم ما تدل عليه الآيات كلها مع الاجتهاد في التأثر بها، وترديد الآية التي يتم التجاوب معها وإن كانت تتحدث عن

معنى آخر غير الذي نستصحبه، وبالإضافة إلى ذلك علينا أن نركز أكثر وأكثر مع المعنى الذي اخترناه لنعيش معه خلال الختمة.. هذا التركيز إنما يكون من خلال تتبعه، والبحث عن الآيات التي تتناوله، والتأمل فيها، ومعرفة الجديد الذي تحمله مع الاجتهاد في استثارة المشاعر مع التفكر فيها حتى نزداد به إيمانًا.

والذي يعين المرء على سرعة تأثره بالآيات التي تتناول المعنى الإيماني الذي يستصحبه: قيامه بأداء أعمال إيمانية لها صلة بهذا المعنى كما سيأتي بيانه.

وقبل أن ننتقل للحديث عن نماذج للمعاني الإيمانية المقترح استصحابها عند تلاوتنا للقرآن، أُذكِّر نفسي وإخواني بأن هذه الوسيلة وغيرها من الوسائل السابقة ليست إلزامية لأحد، بل هي على سبيل الاستئناس والتعاون على العودة المتدرجة والهادئة إلى القرآن، وحسن الانتفاع به على الوجه الذي أنزله الله من أجله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

نماذج إيمانية:

وإليك -أخي القارئ- نماذج للمعاني الإيمانية التي نريد أن نتعلم مثلها من خلال القرآن الكريم؛ لتكون لنا عونًا على بناء اليقين الصحيح في عقولنا، وتشييد صرح الإيمان في قلوبنا، ولك أن تضيف عليها كل ما تريد ترسيخه لديك، فالقرآن مليء بالحقائق والمعاني الإيمانية والتي يكفينا تتبعها حتى الموت... بل لن تكفي حياتنا لإحصائها: ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ [ص: ٨٨].

الفصل الخامس

نماذج مقترحة لبناء الإيمان من خلال القرآن

النموذج الأول:

الإيمان بالغيب

والمقصد من الإيمان بالغيب أن نؤمن بوجود كون غيبي لا تراه أعيننا، وأن نؤمن بوجود الله سبحانه، ونؤمن كذلك بوجود المخلوقات التي لا تراها أعيننا كالملائكة والجن، ويشمل الإيمان بالغيب أيضًا الإيمان بوجود أحداث سوف يمر بها الإنسان بعد الموت من حياة برزخية، وبعث ونشور وحساب ثم الجنة أو النار.

أهمية الإيمان بالغيب:

الإيمان بالغيب هو الباب الأعظم الذي من خلاله تتصل الأرض بالسماء ويؤمن الناس بالله، وعلى قدر اليقين به يستقيم أمر العباد، فمن يعلم أن الله موجود ويراه ويراقبه، وأن هناك ملائكة تحصي عليه أعماله وتسجلها في صحيفته، وأن هناك بعثًا بعد الموت، وحسابًا على تلك الأعمال؛ فإن هذا من شأنه أن يدفعه للاستقامة وفعل ما ينفعه وترك ما يضره في الدنيا والآخرة.

تأمل معي قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١-٦].

أرأيت لو أن هؤلاء المطففين يوقنون بالبعث والحساب أمام الله عَزَّوَجَلَّ هل

كانوا سيفعلون ما فعلوه من تطفيف الميزان؟

إذن الإيمان بالغيب هو البداية التي ينبغي أن نبدأ بها رحلة الإيمان، ولِمَ لا ونحن من خلالها سنغلق الباب -بمشيئة الله- أمام وساوس الشيطان حول وجود الله والبعث والحساب، فهو لا يكاد يترك أحدًا إلا ويوسوس له بهذه الوساوس، حتى تفتر عزيمته ويترك العمل والاجتهاد، ويرتكب المعاصي التي تتسبب في هلكته؛ ومن ثَمَّ يلحق به في النار.. فإن كنت في شك من هذا فتأمل معي هذه الآيات التي تصف حال عباد الله المخلصين والذين سيدخلون الجنة ثم يدور بينهم فيها هذا الحديث: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الصافات: ٥٥-٥٩].

كيف نؤمن بالغيب؟

دلائل وجود الله؛ ومن ثَمَّ صدق كل ما أخبر به موجودة في كل مكان، وأكثر من أن تُحصى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣]

ومع ذلك فقد أرسل الله لعباده رسالة من عنده يعرفهم فيها بنفسه، وبالغيب الذي لا يرونه، وبما سيحدث لهم بعد الموت.. هذه الرسالة أرسلها مع رسول هو محمد بن عبد الله ﷺ.

إذن فأهم دور للرسالة هو ربط الأرض بالسماء، واليقين بصحة الغيبيات، مثل اليقين بصحة ما يشاهدونه بأعينهم.. فإن آمن الناس بهذه الرسالة وأنها حق لا ريب فيه، وليست من تأليف البشر، وأنها من عند الله، فمعنى ذلك أنهم سيؤمنون بكل ما جاء فيها، وما أخبرت عنه.

إذن فنقطة البداية للإيمان بالغيب التصديق بأن القرآن من عند الله، فإن تم ذلك كان الإيمان بما تضمنه أمرًا تلقائيًّا؛ لذلك نجد أن كفار مكة كانوا يحاولون دومًا التشكيك في صدق القرآن بوسائل كثيرة حتى لا يؤمنوا بما فيه من غيب، وكانت أهم أساليبهم: التشكيك في شخص الرسول ﷺ، والادعاء بأنه ساحر أو كاهن أو مجنون، أو أنه قد اقتبسه من أساطير الأولين.. كل ذلك لكي يجدوا لأنفسهم مبررًا لعدم تصديق القرآن وما أخبر عنه من غيب: ﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: ٣١-٣٤].

كيف نؤمن بأن القرآن حق؟

ولأن الإيمان بأن القرآن حق، وأنه رسالة من عند الله، هو حجر الزاوية في مسألة الإيمان بالغيب، نجد أن القرآن يُثبت ذلك بأدلة كثيرة، علينا أن نعيش معها في رحلتنا المباركة مع كتاب الله، وأن نعمل على تجاوب المشاعر مع ما تقرره في العقل من حقائق؛ ليصبح الإيمان بالغيب جزءًا أصيلًا من إيماننا.

والآيات التي ينبغي أن نتوقف عندها ونتفكر فيها تدور حول هذه المحاور:

أولًا: التحدي:

فلقد دعا الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه كل المشككين في القرآن أن يأتوا بمثله: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: ٣٤]، فإن لم يستطيعوا فليأتوا بعشر سور: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [هود: ١٣]، فإن لم يستطيعوا فليأتوا بسورة من مثله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ

﴿ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣]. ويستمر التحدي حتى يومنا هذا وإلى قيام الساعة كأقوى دليل على أن هذا الكتاب حق، ومن ثمَّ ينبغي على الناس الإيمان بكل ما أخبر به: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

ومن صور التحدي به كذلك: تحديهم لإظهار أخطاء فيه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]. وهذا أمر عظيم كفيل بإثبات صحة القرآن، فلا يوجد كتاب من تأليف البشر يدعي صاحبه أنه بلا أخطاء.

ثانيًا: إخباره عن أنباء مستقبلية وحدوثها بعد ذلك:

فمن دلائل أن القرآن حق وأنه لا ريب فيه: إخباره عن وقوع أشياء في المستقبل كأعظم دليل على أنه ليس من قول البشر، فالبشر لا يعلمون الغيب.

فعلى سبيل المثال أخبر القرآن بأن الفرس قد انتصروا على الروم، وقد حدث هذا بالفعل، وأخبر كذلك بأن الروم سينتصرون على الفرس خلال سنوات معدودة.. وقد حدث هذا أيضًا: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾ [الروم: ١-٤].

والقُرْآنُ أَخبَرَ رَسُولَ اللهِ محمدًا ﷺ أنه سيعود بإذن الله إلى مكة بعد أن أخرجه قومه منها، ولقد عاد بالفعل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ﴾ [القصص: ٨٥].

والقرآن أخبر بأن اليهود بعد تشتتهم في الأرض سيجتمعون مرة أخرى في مكان واحد.. وقد حدث هذا في عصرنا باحتلالهم فلسطين وتجمعهم فيها:

﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٤].

ثالثًا: إخباره عن كنه أشياء لم يكن لأحد من البشر أن يعلمها وقت نزول القرآن، وأثبتها العلم الحديث في هذا العصر، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. فالله عَزَّوَجَلَّ أخبر في هذه الآية أنه سبحانه سيُري الخلق أشياء أخبر عنها في القرآن فيتأكدون من خلال رؤيتها أن القرآن حق، وأنه ليس من صنع البشر فيؤمنون بما فيه، ولقد أُتيحت لنا -نحن مسلمي هذا العصر- رؤية هذه الآيات أكثر من غيرنا من القرون السابقة؛ بسبب تقدم العلم الحديث، واكتشافاته غير المسبوقة، ومن ذلك: أطوار نمو الجنين في الرحم، وكيفية نزول المطر، واتساع الكون، وضيق الصدر عند الصعود للسماء، وأن الجلد هو مكان الإحساس والشعور بالألم؛ لذلك فإن الكفار في النار يتم استبدال جلدهم بجلد جديد كلما تهتك ليشعروا بالعذاب: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦].

رابعًا: التأكيد على صدق رسول الله محمد ﷺ وأنه مبعوث من رب العالمين:

فهو ﷺ أمي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فكيف يمكنه إذن أن يؤلف القرآن أو ينقله عن غيره، وقد كان مع قومه قبل ذلك، واحدًا منهم، ولم يدَّعِ طوال سنين عمره -قبل بعثته- أنه رسول من الله: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يونس: ١٦].

ولو كان القرآن من عنده ﷺ لما أوصل لنا في بعض مواضع القرآن خطاب الله الشديد له، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ١]، وقوله: ﴿ وَتُخْفِى فِى

نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

ولــو كان من عنده ﷺ ما تأخر عن إجابــة الكافرين عن فتية أهل الكهف ولا الخضر ولا ذي القرنين، وما انتظر شــهرًا كاملًا حتى يبرئ زوجته التي اتُهمت في عرضها من قبل المنافقين في حادث الإفك.

ومما يثبت أنه رســول الله؛ إخباره ﷺ عن أشــياء ســتحدث في المستقبل، وأن اللــه أوحــى لــه بذلــك: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [النجم: ٣، ٤]. كوعده لســراقة بسواري كســرى، ووعده بالفتوحات، ووعده بفتح القسطنطينية... وتحققت جميعًا.

أعمال يفضل القيام بها وبمثلها:

قد يقول قائل: إنني أعلم هذا كله، ولا أحتاج لتأكيد هذه الحقائق.

نعم، قد تكون كذلك -أخي القارئ- ولكن يظل بناء الإيمان في القلب يحتاج إلى تجاوب بين الفكر والعاطفة، لترسخ تلك الحقائق في اليقين، وتشكل جزءًا من المشــاعر لينعكس ذلك على الأفكار والاهتمامات والســلوك.. من هنا كان من المناسب أن نهتم بهذا الموضوع، وأن نخصص له رحلة -أو أكثر- من رحلاتنا مع القــرآن، بمعنى أن نقــوم بتتبع الآيات التي تتحدث عن المحاور الأربعة الســابقة والتي تثبت أن القرآن حق، ونتفكر فيها، ونجتهد في تجاوب المشاعر معها.

ومن الأعمال المقترحة: الانتفاع بالمواد المقروءة والمسموعة والمرئية والتي تتحدث عن آيات اللــه، والإعجاز العلمــي في القرآن، وهــي بفضل الله كثيرة ومتوفرة، ولها دور كبير في ترسيخ هذه الحقائق.. بإذن الله.

ومـــن الأعمال أيضًا: اســـتخدام هذه الحقائق في دعوة المســـلمين التائهين، وكذلك غير المسلمين، وذلك بالدليل العقلي الذي لا لبس فيه.

النموذج الثاني:

الإيمان باللّه الواحد الأحد

هــذا الجانب الإيماني هو أهم الجوانب على الإطلاق، ولا بد أن يهتم كل منا بترســيخه في يقينه وتعميق إيمانه به، ولِمَ لا وهو عمُودُ الإســلامِ وفُسطَاطُه، وهو البوابة التــي تلج منها أعمــال العبد إلى اللــه، فمهما عمل العامِلون، وأحســن المحســنون.. لا بد لهم أولًا من توحيد الله فيفردونه بالتوجه والعبادة والاستعانة وإلا خاب ســعيهم، وضاع مجهودهم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء: ٤٨].

ولقد اهتم القرآن اهتمامًا بالغًا بتقرير وحدانية الله، واستخدم في ذلك أساليب شتى، وبدأ فيها من أول نقطة:

هل للكون إله؟ مَن هو؟ وما الذي يُثبت أنه الإله الحق؟ وهل معه شريك؟ هل له ولد؟ وماذا عن ادعاءات البعض بوجود شركاء مع الله؟

كل هــذه النقــاط وغيرها أفاض القــرآن في ذكرها وكررها في ســور كثيرة، وخاطب من خلالها العقل والقلب، ومزج الفكر بالعاطفة ليرسخ مدلولها في يقين العبد، وتتشابك مع إيمانه، وتشكل جزءًا مهمًّا من مشاعره ليكون النتاج: إخلاصًا تلقائيًّا لله عَزَّوَجَلَّ في كل الأمور والأحوال مع دوام الاســتعانة به فيردد دائمًا: ﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

محاور الإيمان بالوحدانية:

وإليك -أخي القارئ- بعضًا من الآيات التي تتناول موضوع الوحدانية، وتتحدث عن المحاور السابقة بأدلة تخاطب العقل والعاطفة:

فمسألة وجود إله وخالق للكون يطرحها القرآن في عدة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

من هو الإله الحق؟

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

ما الذي يُثبت أن الله هو الإله الحق؟

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ [لقمان: ١١].

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف: ٤].

ومما يثبت أنه الإله الحق:

أنه أرسل كتابًا أثبت فيه صحة نسبه إليه[1]: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟

(١) انظر الإيمان بالغيب، النموذج السابق.

﴿لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣، ١٤].

أما ادعاء الكافرين بوجود آلهة أخرى، فلقد فند القرآن تلك الدعاوى في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. ومنها قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٖۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

وكذلك تفنيده لادعاء المدعين بوجود واسطة بين الله وعباده، أو وجود من يملك نفع العباد وضرهم غيره سبحانه: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٣٨]. ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٣].

ومع تقرير القرآن بعدم وجود إله آخر أو شريك مع الله أو زوجة أو ولد؛ فإنه أفرد مساحة كبيرة للحديث عن عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وأنه عبد لله مثل باقي البشر، وبسط القول في بيان ذلك بالأدلة العقلية: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّٗا وَلَا نَفْعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٥، ٧٦].

كل هذا وغيره يثبته القرآن بالدليل العقلي الدامغ الذي لا لبس فيه ولا غموض، مع مزج ذلك بخطابه الموجّه إلى المشاعر وما يحمله من تخويف وترهيب للعباد من الوقوع في أي صورة من صور الشرك.. تأمل معي قوله تعالى وما يحمل من خطاب يتوجه إلى العقل فيقنعه، والمشاعر فيرهبها: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ

﴿شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا
يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ
أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ
فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ
أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾

[الأعراف: ١٩٠-١٩٥].

أعمال يُفضل القيام بها وبمثلها:

١- قيل آنفًا إنه لكي تُشكل هذه الحقيقة جزءًا من يقين العبد وإيمانه لا بد من تكرار عرضها على العقل مع تجاوب المشاعر معها، وهذا يستدعي منا ونحن نقرأ القرآن في رحلة أو أكثر من رحلاتنا المباركة معه أن نتتبع المواضع التي تثبت أن للكون إلهًا، وأن هذا الإله هو الله عَزَّوَجَلَّ الواحد، وأنه لا يوجد إله غيره، ولا شريك له، ولا ولد، ولا صاحبة... ولا يوجد من يملك النفع والضر للعباد سواه مهما كان صلاحه ومنزلته عند الله.

٢- التفكُّر في مظاهر وحدانية الله في الكون، ففي كل شيء له آية... تدل على أنه الواحد، فنعيش مع آيات الله في السماوات والأرض من شجر وحجر ودواب، ونتفكر فيها ونثبت بعقولنا أن خالقها هو الله الواحد.

فعلى سبيل المثال: عندما نتفكر في ثمار البرتقال، ونجد أن الثمرة في مصر هي نفسها الثمرة في الشام أو في الهند أو في المغرب.. وأن ما تُسقى به هنا وهناك هو الماء... هذا يدل على أن الخالق واحد وإلا لاختلف الشكل الخارجي أو التقسيم الداخلي للثمرة.

انظر إلى الشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار وإلى دقة نظامها.. فإن كان هناك إله مع الله فهل يمكن للكون أن يسير بنظام واحد؟! أم سيحدث اضطراب وخلل، وإذا كان لله ولد أو صاحبة -حاشاه سبحانه- هل سيستمر هذا النظام بهذه الدقة؟!

من هنا ندرك أهمية عبادة التفكر في ملكوت السماوات والأرض وربطها بالقرآن والاستدلال من خلالها على الله الواحد لتكون الثمار: يقينًا في العقل، وإيمانًا في القلب يصل بالعبد إلى مرحلة الإحسان فيعبد الله كأنه يراه: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية: ٣، ٤].

٣- ومما يؤكد هذه الحقائق، ويرتفع سريعًا ببناء الإيمان واليقين: استصحاب بعض الأذكار التي تشير إلى هذه المعاني والمداومة عليها، ومن هذه الأذكار ذكر: لا إله إلا الله، وذكر: لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

وأيضاً الإكثار من قراءة سورة الإخلاص مع استحضار معانيها.

النموذج الثالث:

الإيمان باليوم الآخر

الإيمان بالله واليوم الآخر له دور كبير في استقامة العبد، فالذي يعلم أن هناك حسابًا على ما يفعله من أخطاء، وأن هناك سجنًا يُودع فيه المجرمون، فإن هذا من شأنه أن يدفعه لاجتناب الوقوع في المعاصي، فإن زلت قدمه يومًا سارع بالاعتذار والندم وطلب العفو والصفح.

إن الإيمان باليوم الآخر ركن ركين من أركان الإيمان؛ لذلك كان -ولا زال- المشركون ومن سار على نهجهم يحاولون التشكيك في قضية البعث والحساب ليستمروا في غيهم وظلمهم: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ [القيامة: ٥، ٦].

ولأهمية هذا الموضوع وضرورة الإيمان الراسخ به، فلقد أفرد له القرآن مساحة كبيرة وتناوله من عدة جهات:

تناوله من جهة إثباته بالأدلة العقلية الدامغة.

وتناوله من جهة كشف أسباب تكذيب الناس به.

وتناوله من جهة وصف أحداثه بشيء من التفصيل مع التركيز على مخاطبة المشاعر؛ لتزداد بذلك خشية الله والخوف منه؛ مما يدفع العبد للاستقامة

والمسارعة إلى الخيرات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧، ٦١].

ومما لا شـك فيه أن حجر الزاوية ونقطـة البداية في هذا الموضوع هو إثبات البعث والمعاد، وهذا ما سيفرد له الحديث في الأسطر القادمة بعون الله وفضله.

إثبات المعاد:

أثبت القرآن أن هناك حياة بعد الموت، وأن هناك بعثًا، وحشرًا، وحسابًا، وجنة يتنعم فيها الطائعون، ونارًا يُعاقب فيها العاصون.

ومن هذه الأدلة:

١- إثبات صحة القرآن وصحة نسبه إلى الله عَزَّوَجَلَّ -كما ذُكر سابقًا- ومن ثَمَّ تثبت صحة كل ما أخبر به من غيبيات وأحداث مستقبلية.

٢- قياس الغيبي على المشهود:

فلقد دعا القرآن الناس إلى قياس الغيب على ما يشاهدونه، ومن ذلك:

* إحياء الأرض الميتة: فنحن نشاهد الأرض الجرداء والتي لا أثر للزرع فيها.. نجدها وقد أصبحت مخضرة بالزرع بعد نزول المطر: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

* وكذلك الاستدلال على إمكانية البعث بخلق الإنسان من العدم: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

* والاستدلال بالنوم -كموتة صغرى- على الموتة الكبرى، وبالاستيقاظ على البعث: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

٣- إثبات القدرة المطلقة لله عَزَّوَجَلَّ:

ولقد أفاض القرآن في إثبات القدرة المطلقة لله عَزَّوَجَلَّ؛ ومن ثم تصبح إعادة الخلق للحياة بعد الموت شيئًا يسيرًا عليه: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨٠-٨٣].

٤- وقوع آيات تشبه البعث، أخبر عنها القرآن وأثبتها التاريخ:

ومن ذلك قصة أهل الكهف الذين ظلوا نائمين ثلاثمائة عام، ثم بعثهم الله عَزَّوَجَلَّ وقد تغير كل ما حولهم، بينما بقيت أجسادهم كما هي لتشهد على قدرة الله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٢١].

٥- الوعد الحق:

أخبرنا القرآن في مواضع كثيرة بوعود وعدها الله عَزَّوَجَلَّ في الماضي وحدثت بالفعل، وأخبر كذلك بوعده سبحانه بيوم الحساب ومجازاة المحسنين بالجنة،

والمسيئين بالنار.. فإن كان كل ما وعد به قد تحقق في وقته، فمن المؤكد أيضًا أن وعده بالجزاء سيتحقق: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

فعلى سبيل المثال: أوحى الله عَزَّوَجَلَّ إلى أم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في اليم، ووعدها بأنه سيرده إليها: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص: ٧].

وأوفى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بوعده: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾ [القصص: ١٣].

ووعد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنصر الروم على الفرس فانتصروا، ووعد رسوله ﷺ بالعودة إلى مكة مرة أخرى بعد أن أخرجه منها قومه، فوفى بوعده، ووعد سبحانه بحفظ القرآن من التحريف فوفى بوعده، ووعد سبحانه في مواضع كثيرة من القرآن بالبعث: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: ٩٧] وسيوفي الله بوعده.. ووعد المؤمنين بالنعيم في الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١١﴾ [التوبة: ١١١].

ووعد الكافرين بالنار: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٧٢﴾ [الحج: ٧٢]، وسيوفي بوعده سبحانه.

٦- النظام الحق العادل:

أفاض القرآن في الحديث عن النظام الذي يحكم السماوات والأرض، وبيَّن

أنه نظام حق عادل يجري وفق سنن وقوانين: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الجاثية: ٢٢]

هذا النظام الحق الذي ينظم حركة الحياة والموجودات.. من الطبيعي أن يطبق على البشر كذلك باعتبار أنهم جزء من هذا الكون، ولكن الواقع يخبرنا بأن هناك البعض يَظلم والبعض يُظلم، وكلهم في النهاية يموتون.. البعض يرتكب أخطاء فاحشة ولا تتم معاقبته، وهذا بالطبع ينافي النظام الحق العادل الذي قامت عليه السماوات والأرض، إلا إذا كان هناك ملحق آخر للحياة يتم فيه مجازاة الظالمين، والانتصار للمظلومين، ومحاسبة المخطئين.

تأمل معي قوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٢]. فالآية تربط بين الحق الذي قامت عليه السماوات والأرض وبين تطبيق نظام الجزاء على البشر: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [التين: ٧، ٨].

والقرآن به العديد من الآيات التي تحدثنا عن هذا الأمر: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

أعمال يُفضَّل القيام بها وبمثلها لتثبيت هذه العقيدة في القلب:

١ - لكي تصبح عقيدة الجزاء راسخة في يقين العبد وتشكل جزءًا أصيلًا من إيمانه لا بد من تكرار عرضها على العقل ليتفكر دومًا فيها، فترسخ في يقينه، وأن يتكرر كذلك عرضها على المشاعر لتستحوذ على جزء معتبر منها.. وهذا ما يفعله القرآن لكثرة عرضه لمسألة البعث والجزاء، ومخاطبته للعقل، وإقناعه بها، وإلهابه

للمشاعر من خلال عرضه لأهوال يوم القيامة.

مـــن هنا كان من الضروري أن نســـتفيد من القرآن في البنـــاء الصحيح لعقيدة الجـــزاء، ولا نكتفي بما عندنـــا من تصور عقلي محدود، بـــل لا بد أن تصبح هذه العقيدة راســـخة في عقولنا وقلوبنا، لتثمر تقوى واســـتقامة علـــى أمر الله، وهذا يســـتدعي منا التركيز على المحاور الستة السابقة وغيرها مما أثبت به القرآن البعث والجزاء، وذلك من خلال رحلتنا المباركة مع القرآن، وحبذا لو أفردنا ختمة أو أكثر لهذا الموضوع المهم، مع الاجتهاد في تجاوب المشاعر قدر الإمكان مع الحقائق التي تظهرها الآيات.

٢- تخصيص وقت للتفكر في آيات الله المبثوثة في الكون، والاســـتدلال من خلالها علـــى قدرة الله المطلقة، وعلـــى أن هناك نظامًا عـــادلًا ودقيقًا يحكم حركة الأشـــياء، وأنه من اللازم أن يُطبق على البشر، وهذا يستدعي وجود ملحق للحياة بعد الموت.. تأمل معي قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ** ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

فهـــؤلاء الصالحـــون قادهم التفكير فـــي ملكوت الســـماوات والأرض إلى الوصول إلى حقيقة: ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا** ﴾، وأن هناك حسابًا: ﴿ **سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾** ﴾.

٣- الالتزام بدعاء الاستفتاح عند قيام الليل، والذي كان رسول الله ﷺ يقوله إذا قام الليل يتهجد: «**اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيَّامُ السَّـــماوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ رَبُّ السَّـــماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ**

فِيهِنَّ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْـدُكَ الْحَقُّ، وَقَوْلُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، أَنْتَ إِلَهِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»[(١)].

(١) رواه مسلم (١/ ٥٣٢ برقم: ٧٦٩)، والبخاري (٢/ ٤٨ برقم: ١١٢٠)، واللفظ لمسلم.

النموذج الرابع:

الدنيا دار امتحان

والهدف من التعامل مع هذا الجانب المهم: أن يرسخ في يقيننا ويشكل جزءًا أصيلًا من إيماننا أن الدنيا ما هي إلا دار امتحان، وأن مصير العبد يوم القيامة يتوقف على أعماله فيها.

ولقد تناول القرآن هذا الموضوع بشيء من التفصيل بداية من خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وسجود الملائكة له، وامتناع إبليس عن ذلك، ثم طرده من رحمة الله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧١-٧٨].

ويخبرنا القرآن أن إبليس طلب مهلة من الله عَزَّوَجَلَّ قبل تنفيذ العقوبة؛ ليعمل فيها على إضلال بني آدم وسوقهم معه إلى النار انتقامًا لنفسه وإظهارًا لآدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأنه ليس أفضل منه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٧٩-٨٣].

البداية:

ويستمر القرآن في سرد قصة وجودنا على الأرض، والتي بدأت بخلق آدم ثم إسكانه الجنة هو وزوجه، ووسوسة إبليس لهما ليخرجهما من دارهما، ونجاحه في ذلك، وتوبة آدم وزوجه وقبول الله عَزَّوَجَلَّ لتوبتهما: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

ومع قبول الله عَزَّوَجَلَّ لتوبة آدم وزوجه فإنه سبحانه أخبرهما بحتمية الهبوط إلى الأرض ليتم فيها اختبار العودة إلى الجنة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].. فما الأرض -إذن- إلا قاعة اختبار: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

إنه اختبار في عبادة الله بالغيب في ظل تمتع البشر بخاصية حرية الاختيار، مع وجود النفس الراغبة في نيل الشهوات، الكارهة للتكاليف.

وحدد لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شكل العبودية التي يريدها منا من خلال منهج وأدوات، وجعل المنهج ميسرًا وسهلًا: تكاليف قليلة، أوامر ونواهٍ ضمّنها كتابه، وشرحها رسوله ﷺ، أما الأدوات فهي ما يعطيه -سبحانه- لعباده أو يمنعها عنهم.. فيعطي بعضهم أشياء مثل المال، والصحة، والمنصب.. ويمنعها عن آخرين.

والهدف من العطاء: الشكر، ومن المنع: الصبر.. فمن أُعطي مالًا ولم يشكر الله عليه فقد رسب في هذا الاختبار، ومن حرم الأولاد فصبر ورضي فقد نجح وحقق المطلوب منه.

فالعبد الصالح يستقبل العطاء، أي عطاء، مستشعرًا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَٰذَا مِن

﴿فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠].

والآخر يستقبله وهو يردد: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [القصص: ٧٨]، وهو لا يدري أنه اختبار: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الزمر: ٤٩].

ويذكرنا الله عَزَّوَجَلَّ أنه ليس لأحد أن يملك شيئًا من الدنيا، فكل عطاء مسترد، وسنخرج منها كما دخلنا فيها، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي سيرث الأرض ومن عليها من ذهب وفضة و... وما علينا إلا أن نردد: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٦].

لماذا الاختلاف بين الناس؟!

فإذا ما تبين ذلك سهلت الإجابة عن السؤال الذي يشغل بال الكثير وهو: لماذا الاختلاف بين البشر في العطاء والمنع، وأيهما أفضل: الغنى أم الفقر؟ من عنده أولاد أم من حرم منهم؟!

الأفضل من ينجح في مادته.. فالغني الشاكر خير من الفقير غير الراضي وغير الصابر، ومن حُرم الأولاد فَصَبرَ خير ممن رزق الأولاد ولم يشكر الله عليهم.

فالعبرة بالكيفية التي نتعامل بها مع المنع والعطاء، ويتضح هذا جليًّا في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

أما الشيطان فهو يدخل علينا من نفس مداخله على أبوينا: الملك، والخلد.. فيزين لنا العطاء على أنه ملك حقيقي، ويبهرج الدنيا أمام أعيننا، فنحبها ونتشبث بها ونتصارع عليها، ثم نفاجأ بعد ذلك أننا لم نجنِ من ورائها إلا السراب: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

إنها القصة المكررة منذ القدم.

فإذا كان هذا هو المنهج، وهذه هي الإجابة المطلوبة، فما هو زمن الامتحان؟! ومن الذي يتولى الرقابة عليه؟!

أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن زمن الامتحان يبدأ من وقت البلوغ والتكليف، وينتهي عند نزع الروح من الجسد، وأخبرنا كذلك بأن باب التوبة مفتوح طوال هذه الفترة، فلنا أن نمحو كل الإجابات الخاطئة ونأتي بالصائبة مكانها ما لم نغرغر.

أما تسجيل الإجابات والرقابة على الأرض فتتولاها أكثر من جهة؛ فالملائكة تسجل كل أعمالنا: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

وأجسامنا شهيدة علينا: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

والكون كله يراقبنا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٩].

ومع هذا كله فالله عَزَّوَجَلَّ قد أحاط بكل ذلك، فهو: الشهيد- الرقيب- السميع- البصير-القريب- المحيط، قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧].

فالرقابة الدائمة المشددة، وعدم معرفة وقت نهاية الاختبار يستلزم منا شدة اليقظة، ودوام محاسبة النفس، والحذر من الشيطان، وكثرة التوبة والإنابة إلى الله.

ويبقى السؤال: متى الحساب وإعلان النتيجة؟

يخبرنا القرآن في عشرات الآيات بما سيحدث للأرض بعد انتهاء امتحان آخر مجموعة من البشر: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾ [الانشقاق: ١-٥].

فالأرض بعد انتهاء دورها تُخرج كل من فيها من البشر، ثم تتحطم ليبدأ يوم الحساب في أرض المحشر.

الكل سيحاسب: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣﴾ [القيامة: ١٠-١٣].

جميعنا سيأتي يوم القيامة، ولكن كل واحد بمفرده دون حاشية أو أقارب أو معارف: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم: ٩٥].

وستخرج معنا صحيفة أعمالنا وإجاباتنا عن كل شيء: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

إنه يوم عصيب: ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝١٧﴾ [المزمل: ١٧].. فيه: ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].. يتولى فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنفسه الحساب مع كل فرد: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وبعد الحساب تُعلن النتائج وتوزع الشهادات: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

فينطلق الناجحون إلى الجنة ليتنعموا فيها بالملك والخلد: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٠]، ويساق الراسبون إلى النار حيث الحبس والعقوبة الأليمة: ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦].

أعمال يُفضل القيام بها:

١- هذا الجانب الخطير نعلمه بصورة عامة، لكننا لا نمارس مقتضى هذا العلم في واقع حياتنا بالصورة المطلوبة؛ بسبب عدم رسوخه في يقيننا، وعدم استحواذه على جزء من إيماننا، وكذلك بسبب غفلتنا وانشغالنا بالدنيا.. من هنا اشتدت الحاجة إلى دوام تذكر حقيقة أن الدنيا دار امتحان، وكيفية التعامل مع أدواتها، وغير ذلك من الحقائق السابق ذكرها.. من هنا كان من المناسب تخصيص رحلة أو أكثر من رحلاتنا المباركة مع القرآن، والتي تبدأ من سورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس لهذا الموضوع المهم؛ فنعيش مع حقائقه وتفصيلاته منذ البداية حتى النهاية، وأن نعمل على تجاوب القلب مع هذه الحقائق.

٢- رحلات الحقيقة: والمقصود برحلات الحقيقة أن نقوم بزيارة الأماكن التي تذكرنا بحقيقة الدنيا وأنها لا قيمة لها، وتذكرنا بالموت، وأنه قريب منا، ومن الأماكن التي تذكرنا بهذه الحقائق: المقابر، وكذلك رؤية المحتضرين، وزيارة المرضى، والنظر إلى الخرائب والمزابل لرؤية مآل الدنيا وحقيقتها.

٣- كثرة الجلوس مع المساكين والفقراء وإعزازهم وعدم الافتخار عليهم، فالكل في امتحان.

٤- تعويد النفس على عدم إطالة النظر في صور نعيم أهل الدنيا من مركبات فارهة، وملابس فاخرة، ومساكن واسعة: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

النموذج الخامس:

الإيمان بالله الوهاب

والهدف من الإيمان بالله الوهاب: التعرف عليه سبحانه، من خلال صفة الإنعام، وهذا من شأنه أن يُمكن لحبه في القلب، ويدفع العبد للعمل الدائم على شكره.

والإيمان بالله الوهاب يستدعي معرفة ما وهبه الله لعباده من نعم كثيرة، وكلما توسع العبد في التعرف عليها بعقله، وتجاوب معها بقلبه ازداد حبه لربه، ولم لا وقد جُبلت القلوب على حب من يحسن إليها؟! وكلما زاد الحب ازدادت المسارعة للطاعة بتلقائية ولذة وشوق.

معنى ذلك أن نقطة البداية للوصول لهذه النتائج المبهرة من حب وطاعة، وأُنس وشوق إلى الله هي التعرف على النعم ودوام ذكرها.. ولقد أفاض القرآن في بيان أهمية تذكر نعم الله، وتحدثت كثير من آياته عن أنواع تلك النعم: ﴿ **فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾** ﴾ [الأعراف: ٦٩].

ويمكن تقسيم النعم إلى عدة أقسام ليسهل استخراجها من القرآن، وإدراجها في القسم الذي يناسبها.. ومن ذلك:

① **نعم الخلق والإيجاد: فالله** عَزَّوَجَلَّ **هو الذي أوجدنا، وخلقنا من العدم:** ﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾** ﴾ [الملك: ٢٣].

أتدري عدد خلايا جسمك التي أوجدها الله عَزَّوَجَلَّ فيك؟

إنها تبلغ مـــن ثلاثين إلى أربعين تريليون خليـــة.. كل خلية منها لها وظيفة أو وظائف محددة.

أتعلم أنه ســـبحانه قد أوجد لك كُلْيَتين.. يوجـــد بالواحدة منها حوالي مليون مصفاة لتصفية الدم من السوائل والسموم، وذلك مرات ومرات في اليوم الواحد.. أما القلب فقـــد أوجده سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في جســـدك ليقوم بدور خطيـــر في ضخ الدم المحمل بالأكسجين إلى سائر أنحاء الجسم لتستمر الحياة... فإذا نظرت إلى الكبد والرئتين وأنظمة الجســـم المختلفة مثل نظام الهضم والامتصاص والإخراج، فما عليك إلا أن تسبح هذا الإله المقتدر الذي أوجد هذا كله من العدم: ﴿ **وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨** ﴾ [النحل: ٧٨].

② **نعم الإمداد: فالله عَزَّوَجَلَّ يمدنا ويمد الكون كله بأســـباب ومقومات الحياة لحظة بلحظة وآنًا بآن:** ﴿ **وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ** ﴾ [الروم: ٢٥].

يمدنا بالماء والغذاء.. يمد أجهزة الجســـم بالقـــدرة على القيام بوظائفها.. يمد اللســـان بالقدرة على الكلام، والعين بالقدرة على الرؤية، والأنف بالقدرة على الشـــم، والأذن يمدها بالقدرة على الســـمع، واليد بالقـــدرة على البطش والرجل بالقدرة على المشـــي وحمل الجســـم، والقلب بالقدرة على ضخ الدم حوالي ســـبعين مـــرة في الدقيقـــة.. يمد جهـــاز المناعة بالقدرة علـــى مقاومة الأمراض.. يمد كل خلية في كل لحظة بأســـباب حياتهـــا وبالقدرة على القيام بوظائفها.

يمد النار بالقدرة على الإحراق، والماء بالقدرة على الإرواء، والدواء بالقدرة على الشفاء لحظة بلحظة.. فنحن من الله خلقًا وإيجادًا، وبالله إمدادًا، وإلى الله مرجعًا ومنتهى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٤].

③ نعم التسخير: خلق الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان وكرَّمه على جميع خلقه، وأسجد الملائكة لأبيه آدم، وخلق الكون وسخره له، بل وجعل الجسد خادمًا مسخرًا له، يأتمر بأوامره.. كل هذا الفضل كي يتفرغ للقيام بالمهمة العظيمة التي خُلق من أجلها، ألا وهي عبادة الله عَزَّوَجَلَّ.

فإذا نظرنا إلى نعم التسخير لوجدناها لا تُعد ولا تُحصى.. منها: تسخير الشمس بنظامها الدقيق لتصبح خادمة للإنسان تمده بالضياء والطاقة، وتسخير القمر ليساعده على معرفة الأيام، وتسخير الليل ليكون مبعثًا على السكون والراحة بعد نهار مسخَّر للعمل والسعي.

سخر الهواء ليمدنا بالأكسجين، وسخر النبات لإمدادنا بشتى أنواع الأطعمة.. لم تمتنع الأشجار يوماً عن طرح ثمارها للبشر، ولم تمتنع الدواب يومًا عن حملنا وإعطائنا لحومها.

أما داخل الجسم فنعم التسخير ظاهرة في كل شيء: فالعين مسخرة لرؤية الأشياء، واللسان للتعبير عما نريد، واليد للكتابة والبطش.. والرجل للحركة والذهاب للمكان الذي نريده.. سخر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المخ للتفكير واتخاذ القرار: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [الجاثية: ١٣].

④ نعم الحفظ: ومع نعم الإيجاد والإمداد والتسخير فهناك نعم الحفظ.. حفظ الكون بما فيه.. وحفظ الجسم وما يحتويه.

فيحفظ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ السماء أن تقع على الأرض، والشمس أن تخرج من مدارها أو تقترب من الأرض فتحرقها، أو تبتعد عنها فتتجمد.. يحفظ البحار من إغراق الأرض.. ويحفظ نسب الغازات في الهواء.. يحفظ التوازن البيئي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

يحفظ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الجسم من الأمراض.. يحفظ تريليونات الخلايا كل طرفة عين من أن تفقد خلية منها وظيفتها فتتحول إلى خلية سرطانية.

يحفظنا عند النوم.. ويحفظ أولادنا، ويحفظ ويحفظ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠].

⑤ نعم الأمن والستر: من الحوادث والحرائق وقُطَّاع الطرق.. من التقلبات الجوية، والظواهر الكونية: كالزلازل والبراكين والفيضانات والجفاف..

⑥ نعم الهداية: الهداية إلى الإسلام وإلى الإيمان.. وكفى بها من نعم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

⑦ نعم الثبات: على الإسلام.. على الإيمان.. على حب الجهاد.. على حب الإنفاق.. على الصلاة في المسجد: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣].

⑧ نعم التيسير والتوفيق والسداد: قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].

⑨ **نعم العصمة**: من الكفر والظلم وأكل الحرام والجور والذنوب و..: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

⑩ **نعم الإمهال**: وعدم أخذنا وقت معاصينا بل إعطائنا الفرصة تلو الفرصة للتوبة إليه.

⑪ **نعم الاجتباء وسبق الفضل**: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، فنحن لم نختر الزمان الذي وجدنا فيه، ولا المكان، ولا الأبوين.

تخيل لو كنت ابنًا لرجل بوذي أو هندوسي أو مجوسي أو صليبي أو شيوعي، ماذا كنت فاعلاً؟

وتخيل لو كنت في بيئة تتحدث غير اللغة العربية، كيف ستفهم القرآن؟

وتخيل أنك ولدت أيام الفتن، أو مع آل فرعون، أو مع قوم لوط، أو في زمن الفترة.

وتخيل أنك نشأت يتيم الأبوين، أو وجدت البيئة من حولك بيئة فسق وفجور.

تخيل ثم تخيل لتستشعر غرقك في نعم الله وفضله.

وسائل عملية:

لن يتم ترسيخ هذا الجانب الإيماني المهم في قلوبنا إلا إذا قمنا بإحصاء نعم الله علينا -قدر المستطاع- مع استشعار فضله العظيم الذي أغرقنا فيه، وهذا يستدعي منا:

١- التعرف على نعم الله علينا من خلال القرآن.. فنخصص ختمة أو أكثر لهذا الموضوع المهم، نتعرف من خلالها على جوانب النعم المختلفة -والتي

سبقت الإشارة إليها- ونجتهد في استثارة المشاعر مع آيات النعم قدر الإمكان، وترديد الآية التي تؤثر في القلب.

٢- العمل على إحصاء نعم الله الخاصة بالواحد منا، وذلك من خلال الجوانب السابقة، وحبذا لو تم تخصيص كراسة لذلك.

٣- تخصيص وقت يومي -ولو لمدة دقائق- نتذكر فيها نعم الله علينا في هذا اليوم، ونُكثر من حمده بعدها، فللحمد في هذا الموضع مفعول خاص على القلب في زيادة إيمانه؛ لأنه يعبر عن الحالة الشعورية التي يعيشها ويستفرغ امتنانه وشكره بولي نعمته.

٤- سجود الشكر بعد كل نعمة متجددة أو توفيق يصاحبنا.

٥- جلسات ذكر النعم: وذلك بأن نجلس مع أهلنا وأولادنا وأصدقائنا، فنتذكر نِعَم الله علينا، بخاصة بعد كل توفيق ونجاح يصاحبنا، فنعدد جوانب النعم التي أظهرها لنا هذا النجاح.

٦- التعُّود على ربط النعمة بالمنعم: فلا تقل: أنا فعلت كذا وكذا، ولكن قل: بفضل الله فعلت كذا.

٧- الإكثار من الحمد بصفة عامة، وكذلك الأدعية المأثورة للحمد بعد الطعام والشراب، والاستيقاظ، واللباس.

٨- مناجاة الله في الصلاة والدعاء بذكر نعمه علينا، وتعداد هذه النعم في دعائنا كما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في دعائه: ﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾** ﴾ [إبراهيم: ٣٩]. ومن أعظم أوقات المناجاة جوف الليل.

النموذج السادس:

الإيمان بالله الودود

ومعنى الودود أي المُحِبُّ لِعِبَادِهِ.

وهذا الجانب الإيماني من أهم الجوانب على الإطلاق، ولم لا والعبد كلما تعرف على مدى حب ربه له، وقدر المعاملة التي يعامله بها، فإن هذا من شأنه أن يجعله دومًا حسن الظن به، ويجعله كذلك يحبه ويشتاق إليه، ويستقبل أقداره بنفس راضية، ويسارع إلى طاعته، وسينعكس ذلك على علاقته بالناس؛ فتجده يحرص على هداهم، ويحلم عليهم، ويلين معهم.

من هنا كان من الضروري الاهتمام بهذا الجانب الإيماني، وأن يكون من أوائل ما نبنيه في قلوبنا. فمن خلال رسوخه في يقيننا واستحواذه على جزء من مشاعرنا فإن ذلك من شأنه أن يعيد صياغة العلاقة بيننا وبين الله عَزَّوَجَلَّ؛ لتصبح علاقة حب وود وشوق ورضا وسعادة.. هذه العلاقة سيكون -بلا شك- لها أكبر الأثر في التعامل مع أحداث الحياة ومع العبادة.. بمعنى أننا لن نتحرك في حياتنا وفي عباداتنا بدافع الخوف من الله فقط، ولكن بحادي الحب والشوق إليه سبحانه كذلك، فنهرع إلى الصلاة مرددين قول حبيبنا ﷺ: «**أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ**»(١)، وكذلك

(١) المعجم الكبير للطبراني (٦/ ٢٧٧ برقم: ٦٢١٥).

في كل أمور حياتنا.

لماذا يحبنا الله عَزَّوَجَلَّ؟!

الله عَزَّوَجَلَّ يحب عباده البشر حبًّا خاصًّا عن سائر مخلوقاته، ولِمَ لا وفيهم نفخة من روحه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

أمر الملائكة بالسجود لأبيهم آدم، وكرمهم على سائر خلقه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

وليس أدل على حب الله الخاص لعباده من تقرب الملائكة إليه سبحانه من خلال الدعاء والاستغفار لمن في الأرض من البشر، كالرجل الذي يريد أن تكون له منزلة عند رجل آخر، أو يريد قضاء حاجة عنده فيُثني على أولاده، ويدعو لهم، ولله المثل الأعلى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾ [غافر: ٧].

من هنا يتبين لنا لماذا يتودد الله عَزَّوَجَلَّ لعباده ويتحبب إليهم، ويعاملهم بلطف ورحمة وإحسان، ويريد لهم جميعًا الخير.. مؤمنهم وكافرهم.. برهم وفاجرهم، فهو سبحانه يريد من كل فرد تطأ قدماه الأرض، حتى اليهود والنصارى وقطاع الطرق واللصوص أن يعودوا إليه ويستجيبوا له ويطيعوه ليدخلهم الجنة: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧].

مظاهر الود:

ولقد أفاض القــرآن في بيان مظاهر الود الإلهي لعبــاده، فعلينا أن نتتبعها في تلاوتنا للآيات، وأن نحرص على تجاوب المشاعر معها.

وإليك -أخي القارئ- بعضًا من هذه المظاهر:

إرادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **الخيــر لجميع عباده ودعوتهم الدائمــة للتوبة** بمن فيهم اليهود والنصارى، بالرغم مما يدَّعونه عليه ســبحانه من دعــاوى باطلة، يهتز لها الكون.

فإن كنت في شك من هذا فابحث عن الآيات التي تخاطبهم وما فيها من صور التودد: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [البقرة: ٤٧، ٤٨].

لو كان ســبحانه يريد لهم النار جزاء ما فعلوه فلمــاذا يخاطبهم بهذه الطريقة، ويناديهم ببني إسرائيل، ويربطهم بنبيه يعقوب؟!

هذا مــع اليهود، أما مع النصارى فالآيات التي تدعوهــم للتوبة كثيرة رغم ما فعلــوه.. تأمل قوله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [المائدة: ٧٣]. ثم تأمل الآية التالية لهذه الآية: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة: ٧٤].

ويتسع ذلك الود ليشمل سائر البشــر.. فالباب مفتوح أمام الجميع مهما كان جُرمهــم، فقطَّاع الطرق الذيــن يروعون الآمنين لو تابوا قبــل أن يُقام عليهم الحد

فسيقبل الله توبتهم: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المائدة: ٣٤].

بل إن الذين يفتنون الناس عن دينهم ويعذبونهم.. فإنهم لو تابوا لتاب الله عليهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠].

قبوله اعتذار المعتذرين:

من دلائل حب الله لعباده أنه يسمح لهم بالاعتذار عما يرتكبونه من أخطاء مهما كان حجمها، ويكتفي منهم بالندم والاعتذار والاستغفار، فيعفو عنهم وكأن شيئًا لم يكن.. تأمل معي قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [القصص:١٦].

هكذا بكل يسر.. قال: رب اغفر لي فغفر له.. فماذا تقول بعد ذلك؟!

ماذا تقول لرب يريد من عباده أن يستغفروه ليغفر لهم على ما كان منهم، ولا يبالي بحجم ما فعلوه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ ﴾ [النساء: ١١٠، ١١١]

حلمه علينا:

فالله عَزَّوَجَلَّ لا يتربص بعباده، ولا ينتظر أخطاءهم ليعاقبهم، بل يحلم عليهم ويتجاوز عن زلاتهم وهفواتهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

تأمل قوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٢٥].

شريعته كلها رحمة:

فمن أعظم دلائل حب الله لعباده أن شريعته التي شرعها لهم كلها تصب في مصلحتهم والرحمة بهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والكثير من الآيات تبين لنا الحكمة من التشريع وأنها رحمة بنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١]

ومع بيان الحكمة من التشريع وربطها بمصلحتنا، نجد كذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ يحببنا في العبادة، ويبين لنا أنها لن تستغرق منا وقتاً طويلاً حتى يسهل علينا القيام بها، كقوله تعالى عن الصيام: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وفي الحج: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

مراعاة حالات الضعف والحرج التي قد يقع فيها المسلم:

ومع أن العبادة المطلوبة من المسلم لا تستغرق وقتاً طويلاً في يومه إلا أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخففها عنه وقت الاضطرار والمشقة؛ رفعًا للحرج، ومراعاة للضعف البشري، فعلى سبيل المثال:

الصيام: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والصلاة في الحرب: ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

ومن صور الود الإلهي:

خطابه الودود لعبـــاده، والذي يقطر عطفًا وحنانًا وشـــفقة ورأفة بهم وإرادته الخير لهم ودخولهم الجنة

كقوله تعالـــى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقولـــه: ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

نصائحه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **لعباده:**

فالله عَزَّوَجَلَّ دائم النصيحة لعباده بما ينفعهم، ويقربهم من الجنة، ويحذرهم من الشيطان، ومن الانشغال بالدنيا.

كقوله تعالى: ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الشورى: ٤٧].

وقولـــه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر: ٥، ٦]

معاملته الكريمة لنا:

فمن العدل أنه من يعمل سيئة أو حسنة فإنه يُجزى بمثلها، ولكنه سبحانه لا يعاملنا بهذه الطريقة، بل بكرم عجيب: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٦٠].

إنه سبحانه يريد أن يرى منا أي حسنة لكي ينميها ويزيدها لنا: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الشورى: ٢٣].

ومن صور الكرم الإلهي أيضًا: الهبات والمنح والهدايا التي يرسلها لعباده كل فترة لتكون بمثابة الأمل والحافز لتدارك ما فاتهم، واللحاق بركب المؤمنين السائرين إليه وإلى جناته. ومن هذه المنح: ليلة القدر.. ففي هذه الليلة يمنح سبحانه من يحييها بالعبادة عطية لا يمكن تصديقها، ألا وهي ثواب يكافئ ثواب عبادة ألف شهر بل يزيد: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ [القدر: ٢، ٣]، وصيام يوم عرفة يكفر سيئات عامين، أما صيام يوم عاشوراء فيكفر سيئات عام..

خطابه المُطَمْئِن لنا:

من صور حب الله لعباده طمأنتهم من ناحيته سبحانه، فهو دومًا يذكرنا بأنه رب رحيم ودود حليم غفور رءوف.. رحمته تسبق عذابه، وحلمه يسبق غضبه.

والمتأمل للقرآن يجد أنه يغلب عليه الحديث عن الرحمة والرجاء في الله، وليس أدل على ذلك من بدء كل سورة بـ: بسم الله الرحمن الرحيم، وكأنها رسالة تطمين للجميع بأن ربكم رحمن رحيم.

ومما يؤكد هذا المعنى أن تخويفه لعباده غالبًا ما يقرن بذكر الرحمة والمغفرة

والرأفة حتى لا يقنط أحد من رحمته فيشرد بعيدًا عنه، تأمل معي قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقوله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: ١٤٧].

رحمته الخاصة بالضعفاء والمساكين وأصحاب الاحتياجات الخاصة:

فهو سبحانه ابتلى البعض بالفقر أو اليتم أو المرض أو...، هذه الابتلاءات لا تنقص من قدرهم شيئًا عنده، فالدنيا ليست دار جزاء، والخاسر من يخسر نفسه يوم القيامة ولا يدخل الجنة..

ومع ذلك فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يستحث عباده على معاملة هؤلاء المبتلين برحمة وعطف وشفقة مراعاة لظروفهم، فتجد الحث الدائم في القرآن على المعاملة الخاصة لهؤلاء الضعفاء: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦].

ومع هذا التوجيه الإلهي بمساعدة المبتلين، يأتي التوجيه كذلك بمراعاة مشاعرهم وعدم إيذائهم، والمنَّ عليهم بتلك المساعدة: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٞ ٢٦٣﴾ [البقرة: ٢٦٣].

إخباره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **لعباده عن سبب عقوبتهم** -إن عاقبهم- وسبب إهلاك الأمم السابقة، مع أنه الإله العظيم الذي لا يُسأل عما يفعل، فيخبرهم سبحانه أنه لا يعاقب أحدًا إلا بسبب ذنب اقترفه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

بل إن هذه العقوبة الدنيوية رحمة منه سبحانه بهم، ولِمَ لا وتأجيل عقوبتهم

إلى يوم القيامــة معناها النار والعياذ بالله. أما فــي الدنيا فهي تطهير وتخليص من الذنوب.

إذن العقوبــة في الدنيا لها دور كبير في تطهير العبد من ذنوبه.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فــإن لها فائدة عظيمة في تذكير الناس بربهم، وبضرورة عودتهم إليه قبل فوات الأوان: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف: ٤٨].

أما هلاك الأمم الســابقة فلقد أفاض القرآن في بيان أســبابه، وأنهم هم الذين بدأوا بالإساءة، وأصروا عليها، وأن الله عَزَّوَجَلَّ صبر عليهم طويلًا، لكنهم لم يكفُّوا عن غيهم فاستدعوا غضبه بعد طول حلمه.

لماذا يذكر الله لنا كل هذا، وهو الإله العظيم الذي يفعل ما يريد ولا ينبغي أن يُسأل عنه؟

نعم، يذكر لنا أســباب عقابه لتطمئن قلوبنا من ناحيته سبحانه، فلا نتعامل معه بهلع وفزع، ولا نستشــعر تربصه بنا، أو معاقبتنا بلا ســبب، فهو ســبحانه لا يظلم أحــدًا.. تأمل قولــه تعالــى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩، ٤٠]

ومن أجلِّ صور الود: أنه سبحانه يعلمنا ما نقول ليعفو عنا، ويُعطينا سؤلنا:

تأمل معي قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧].

ومع بني إسرائيل: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨].

ومن صور ذلك أيضًا: تلك الأدعية التي ضمنها كتابه، وتحمل في طياتها معاني كثيرة لو أردنا أن نعبر عنها لاحتجنا الكثير والكثير من العبارات، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦].

استثارة همتنا لفعل الخير:

من صور الود العجيبة أنه سبحانه يستثير همتنا لفعل الخير مع غناه التام عنا وعن عبادتنا، فهو الغني الحميد.

تأمل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ١١].

أليس المال ماله، فلماذا يستقرضنا ويعدنا بمضاعفة أموالنا أيضًا؟! لِمَ كل هذا؟!

إنه الحب الإلهي لعباده وإرادته تزكيتهم وتطهيرهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

ترغيبه لعباده في مساعدة بعضهم البعض حرصًا منه سبحانه على مصالح عباده، ومن دلائل ذلك ترغيبه الشديد في الدعوة إليه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا

﴿إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

فلا عجب أن يكون مقامها من أشرف المقامات عنده: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢٢، ٢٣]

وما قتال الكافرين إلا لإزالة الطواغيت الذين يحولون بين الناس وبين دعوتهم إلى الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣].

ومما يلحق بهذا الجانب أيضًا: ترغيبه لعباده في العفو عن بعضهم البعض ليدخلوا الجنة معًا: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

تذكيرنا بأخطاء من سبقونا كي لا نقع فيها، ولقد أفاض القرآن في عرض نماذج تلك الأخطاء والتي تتكرر في كل زمان ومكان.

ومن ذلك عرضه لنموذج فرعون وتكبره وطغيانه، ونموذج قارون وغروره بماله، ونموذج عاد وغرورهم بقوتهم.. ونموذج سبأ وإعراضهم عن شكر الله.

ومن عظيم دلائل حبه لنا إخبارنا بما سيحدث بعد الموت من أحداث، أهمها البعث والحساب.. كل ذلك أفاض فيه القرآن بتفصيل شديد فأصبحنا وكأننا نراها رأي العين؛ ليحسن استعدادنا ليوم القيامة.. لنتأمل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١، ٢].

ومع إخبارنا بما سيحدث يوم القيامة من أحداث، فإنه سبحانه قد أخبرنا بنماذج مختلفة من الناس وأحوالهم في هذا اليوم كالغافل، والمجرم، والمتكبر، والمغرور، والظالم حتى لا نغتر بالدنيا، وحتى نسارع بالفرار إلى الله قبل فوات الأوان.. تأمل قوله تعالى وما يمكن أن يترك في النفس من خوف وحذر ثم استقامة وورع: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٣، ٩٤].

الترغيب والترهيب:

ومن صور الود الإلهي لعباده تخويفه وترهيبه لهم بالنار، وعرضها بصورة مخيفة مرعبة كي يسارعوا بالعمل على الهروب منها: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٦].

وفي مقابل ذلك نجد التشويق والترغيب في الجنة من خلال عرض صور نعيمها بتفصيل وتشويق لتستثار الهمم، وتتعلق القلوب بذلك النعيم؛ مما يؤدي إلى المسارعة في الخيرات وفعل كل ما يقرب إليه -سبحانه- وإلى جنته: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

ومن شاء فليتتبع الآيات التي تصف نعيم الجنة فالقرآن يزخر بها.

أعمال يُفضَّل القيام بها:

١- هـذه الصور العظيمة للـود الإلهي لن يتمكن مدلولها ويرسـخ في يقين العبد، ولن تشـكل جزءًا من إيمانه إلا إذا تم تكـرار عرضها على العقل والقلب، وهذا يسـتدعي منا تخصيص أكثر من ختمة لهذا الموضـوع المهم، والبحث عن تلك المظاهر في الآيات، مع العمل على تجاوب المشـاعر معها حتى تتم الفائدة المرجوة بإذن الله.

٢- مناجاة الله وإظهار حبنا له.

٣- كثرة حمد الله.

٤- دعاء اللـه بالأدعية المأثـورة التي تُظهر حب العبد لـه عَزَّوَجَلَّ، مثل قول رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ، اللَّهُمَّ مَا رَزَقْتَنِي مِمَّـا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوَّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ، اللَّهُمَّ وَمَـا زَوَيْتَ عَنِّي مِمَّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ لِي فَرَاغًا فِيمَا تُحِبُّ**»[1].

۞ ۞ ۞

(١) سنن الترمذي برقم (٣٤٩١) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

النموذج السابع:

الإيمان باللّه الرب القيوم

ومعنى القيوم: أي القائم بذاته، والقائم بشئون خلقه.. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والمستهدف من هذا الجانب العظيم من جوانب الإيمان أن نوقن بعقولنا، ونؤمن بقلوبنا أنه لا يوجد لدينا أو لدى أي مخلوق من مخلوقات الله شيء ذاتي أو قدرة ذاتية يمكنه من خلالها الاستغناء عن الله.. فلا حول ولا قوة إلا بالله...

معنى ذلك أننا لن ننطق إلا إذا أمدنا الله بالقدرة على النطق، ولن نضحك إلا إذا أمد -سبحانه- عضلات الفكين بالقدرة على الانقباض والانبساط، والمشاعر بالتوهج والفرح، والمخ بالفاعلية، وإلا لما ضحكنا: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النجم: ٤٣].

لن نرتوي إذا شربنا الماء إلا إذا أمده الله بفاعلية الإرواء، وأمدنا بالشعور بالريِّ وإلا لشربنا وشربنا دون جدوى.

فنحن بدون الله لا نساوي شيئًا، وإلا فانظر إلى جهاز معقد كالحاسب الآلي مثلاً، والذي يزخر بالإمكانات والقدرات، ماذا يكون حاله عند انقطاع التيار عنه.. ما قيمته.. وما قيمة ما فيه من إمكانات؟ ولله المثل الأعلى فنحن أيضًا لا قيمة لنا إذا انقطع عنا المدد الإلهي.

تأمل الطفل الرضيع وسل نفسك: كم يحتاج إلى أمه -ظاهريًّا- لكي تقوم حياته؟! وماذا لو تركته؟! كيف سيأكل أو يشرب؟.. كيف سينظف نفسه؟!.. كيف سيرتدي ملابسه؟!.. ماذا يملك أن يفعل سوى البكاء؟

هذا هو حال الطفل الرضيع مع أمه وهو يحتاج إلى أمور محدودة، فكيف يكون حالنا مع الله عَزَّوَجَلَّ ونحن نحتاج إليه أكثر بملايين وملايين المرات من هذا الطفل إلى أمه؟!

أتعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ يتولى شئوننا كلها.. يمد أعيننا بالقدرة على الإبصار في كل لحظة.. وكذلك الأذن بالقدرة على السمع، والعقل على التفكير، والقلب على ضخ الدم، والكلية على تنقيته و...

لو تخلَّى عنَّا سبحانه طرفة عين لهلكنا، ولِـَم لا والدم سيتوقف عن الجريان، والمخ عن إصدار الأوامر، والرئتان عن الشهيق والزفير، و...إلخ.

ولسنا نحن فقط الذين نحتاج إلى الله عَزَّوَجَلَّ احتياجًا ماسًّا ومطلقًا ومستمرًّا، بل الكون كله كذلك، فكل المخلوقات تستمد قدرتها وفاعليتها على القيام بوظائفها من الله عَزَّوَجَلَّ لحظة بلحظة وآناً بآن.. فهو سبحانه الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، وهو سبحانه الذي يرفع السماوات بغير عمد، ويمسكها أن تقع على الأرض، ولو تركها طرفة عين أو أقل لسقطت: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥].

أهمية الإيمان بالله الرب القيوم:

هذا الجانب الإيماني له أهمية قصوى في تربية الفرد على العبودية لله عَزَّوَجَلَّ،

فمن خلاله يدرك أنه لا قيمة له إلا بالله، وهذا من شـأنه أن يبعد عنه داء الإعجاب بالنفس والفرح بها.

ولـه دور كبير في تحقيق الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ وعدم الشـرك به، فعندما يدرك العبد مدى رعاية ربه له وقيامه على شـئونه، وأن مفاتيـح الخير كلها بيده، فإنه لن يستعين بغيره، ولن يتوجه إلا إليه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

والإيمـان الصادق بهـذا الجانب له كذلك دور كبير فـي تعظيم قدر الله في النفس، فمن الطبيعي أننا كلما اكتشـفنا مدى الرعايـة والتعهد والإمداد المتوالي الذي يمدنا الله به، فإن هذا من شأنه أن يُعظم قدره داخلنا، ويزيد حبنا له لما يفعله من أجلنا، وتزداد كذلك خشيتنا من أن يحرمنا شيئًا من إمداداته، وتزداد استعانتنا به وتوكلنا عليه فيما نريد تحقيقه، ويقل الطمع بل وينقطع عما في أيدي الناس..

إن هذا الجانب الإيماني الخطير يجعلنا نعيش في حقيقة فقرنا الذاتي والمطلق لله عَزَّوَجَلَّ، ويصغر في أعيننا الأسـباب والإمكانات التي تتوافر لدينا، لتصبح ستارًا نرى من خلالها عظيم فضل الله علينا، وأننا به سبحانه لا بأنفسنا.

كيفية الإيمان بالله الرب القيوم:

لكي يصبح هذا الجانب الإيماني العظيم يقينًا راسخًا في العقل، وإيمانًا عميقًا في القلب، لا بد من تكرار عرض صوره المختلفة على الفكر والعاطفة ليتمكن من إحداث التغيير المطلوب، مع الأخذ في الاعتبار ضرورة وجود أعمال تشـيِّد بنيان الإيمان بهذا الجانب العظيم.

نعم، هذا البنيان لا بد أن يُقام على قاعدة راسخة ثابتة، وهنا يأتي دور القرآن، الذي يقوم بتأسيس القاعدة الإيمانية لهذا الجانب العظيم وغيره من جوانب الإيمان.

ولقد أفاضت آيات القرآن في التحدث عنها، وآثارها وصورها المختلفة، وإليك -أخي القارئ- بعضًا من هذه الصور:

ربوبية وقيومية الخلق:

فالله عَزَّوَجَلَّ يخلق جميع الموجودات من العدم، وهو سبحانه الذي يتولى نموها من طور إلى طور، فعلى سبيل المثال خلق الإنسان.. يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤]. أرأيت أخي هذه الصورة العظيمة للربوبية والقيُّوميَّة؟

هذا بالنسبة لخلق الإنسان والذي يبدأ من الطين، أما النبات فتأمل معي قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

ربوبية وقيومية الإمداد:

الله عَزَّوَجَلَّ يمد الكون كله بأسباب قيامه وحياته وإلا لكان عدمًا: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ

﴿ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

ويمد الإنسان بكل ما يكفل له استمرار حياته.. يطعمه ويسقيه، وإذا مرض فهو يشفيه.. اقرأ معي قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر: ٢٢].

تأمل لفظ ﴿ فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ ﴾ لتعلم مدى تعاهد الله لنا وقيوميته علينا.

وليس الأمر مقصورًا على هذا فحسب، فكل خلايانا وأجهزتنا وعضلاتنا تستمد قوتها منه سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس: ٢٢].

قيومية الحفظ:

الله عَزَّوَجَلَّ قائم على الكون كله يحفظه على الحالة التي خلقه من أجلها، فالشمس خُلقت لإمداد الناس بالضياء والدفء، ولمعرفة الأيام، وحركة الليل والنهار، والفصول الأربعة.

هذه الشمس تحتاج إلى أن تسير بانتظام في مدارها.. لا ينبغي لها أن تتوقف أو تتحرك أقرب أو أبعد مما هي عليه، فلو حدث هذا لهلك الناس والدواب وكل شيء.. من الذي يتولى حفظها في مدارها وتسييرها في كل يوم عبر ملايين السنين؟.. إنه الله الرب القيوم القدير: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

أمَّا السماء التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ سقفًا يحفظ الأرض، فقد خلقها سبحانه بلا أعمدة ترفعها، ويتولى بنفسه حفظها ورفعها منذ أن خلقها من ملايين السنين، ولو تركها طرفة عين لسقطت على الأرض: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج: ٦٥].

هذه الصورة من صور القيومية تنطبق على جميع الموجودات بما فيها الإنسان، فهو سبحانه يتولى حفظ القلب ليستمر في ضخ الدم بسرعة معينة لو ازدادت أو نقصت لحدث اضطراب شديد في الجسم.. ويتولى حفظ جميع خلايا الجسم وإفرازاتها بنسب محددة: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

قيومية العلم والإحاطة بكل شيء:

الله عَزَّوَجَلَّ يعلم كل شيء عن كل شيء... يحيط إحاطة كاملة ودائمة بجميع خلقه: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس: ٦١].

قيومية القدرة:

ومع قيومية العلم تأتي قيومية القدرة المطلقة لله عَزَّوَجَلَّ والمحيطة بجميع خلقه، فقد كان سبحانه مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما واجه السحرة، وأوجس خيفة في نفسه لما رأى حبالهم وعصيهم تسعى.. فماذا فعل الله له في هذه اللحظات: ﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ﴾ [طه: ٦٨، ٦٩].

وعندما قرر موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقومه الفرار من فرعون وبطشه وانطلقوا إلى البحر يعبرونه إذ بفرعون وجنوده يقتربون منهم: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ

﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ فماذا حدث؟ ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٦١-٦٦].

فالله عَزَّوَجَلَّ يحيط بجميع خلقه، ويملك القدرة المطلقة على تنفيذ ما يريد في الوقت الذي يريد.

قيومية الهداية:

لا طاقة لأحد من البشر بنفسه الأمارة دوماً بما يحقق شهواتها الظاهرة والخفية: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

ليس من الممكن لأحد من البشر أن يصلي أو يصوم أو ينفق أو يحج إلا بهداية وإعانة من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ﴾ [سبأ: ٥٠].

لن يؤمن أحد ولن يهتدي أحد إلا بإعانة من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١].

معنى ذلك أن كل صلاة نصليها فهي بقيومية الإعانة والهداية الإلهية، ولو تخلى عنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما صلينا ولا صمنا: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩].

قيومية العصمة:

ومع تعهده سبحانه لعباده المؤمنين بإمدادهم وتحبيبهم في العبادة فإنه سبحانه يعصمهم من الوقوع في المعاصي والزلات، فيصرف رغبتهم عنها، ويشغلهم

بأشياء أخرى و... وإن لم يفعل سبحانه ذلك لهلكنا ولوقعنا في المعاصي بأنواعها المختلفة.. صغائرها وكبائرها.

تأمل معي قول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يناجي ربه: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فسيدنا إبراهيم يخشى على نفسه وأبنائه من عبادة الأصنام.. لماذا؟ لأنه يوقن بأن الله عَزَّوَجَلَّ لو تركه لنفسه لعبد الأصنام.. أليس هو القائل لقومه: ﴿ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ﴾؟ [الأنعام: ٨٠]... تأمل قوله: ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ﴾ لتدرك أن أي معصية تحدث في الأرض ولا تفعلها فهي محض عصمة من الله لك.. ألم يقل يوسف الصديق لربه: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾؟ [يوسف: ٣٣].

قيومية التثبيت:

الله عَزَّوَجَلَّ قائم على قلوبنا يثبتها على الإيمان ويربطها على ذلك، ولو تركها طرفة عين لزاغت إلى الهوى.. ألم يقل سبحانه لحبيبه محمد ﷺ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾؟ [الإسراء: ٧٤].

تأمل هذه الآية لتدرك معنى التثبيت، وأنه من عند الله وحده لا شريك له: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [القصص: ١٠].

إذن فالثبات من عند الله؟ ولو تركنا لزاغت قلوبنا ولحدنا عن كل خير: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

قيومية الولاية والحماية:

اللـه عَزَّوَجَلَّ يتولى حفـظ أوليائه مـن كل سـوء: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦].

فهـو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي حفظ يوسـف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف: ٢٤].

وهو سبحانه الذي حفظ محمدًا ﷺ وحماه من المشركين عندما هموا بقتله: ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٤٠].

وهو الـذي تولى حفظ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وحمايته عندمـا ألقاه قومه في النار: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

قيومية القرب والإجابة:

الله عَزَّوَجَلَّ قريب من عباده جميعًا، إذا سألوه أجابهم، وإذا استنصروه نصرهم، وإذا اسـتنقذوه أنقذهم: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فإذا ما وسـوس لنا الشـيطان وحاول إغواءنا فما علينـا إلا أن نهرع إلى الله ونسـتعيذ به: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت: ٣٦].

وإذا حاق بنا خطر (ما) فما علينا إلا أن نستغيث بالله كما فعل يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في بطن الحوت: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

هذه القيومية تشمل جميع البشر: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣].

قيومية العطاء والمنع:

الله عَزَّوَجَلَّ يحب عباده، فما من مشيئة منه إلا ووراءها حكمة تصب في مصلحتهم.. فهو سبحانه قائم عليهم جميعًا، يعلم ما يصلح كلًّا منهم؛ فيعطي هذا ويمنع هذا: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الشورى: ١٢].

قيومية الجزاء:

من صور قيومية الله على عباده أنه عليم بهم، قريب منهم، يعلم سرائرهم وعلانيتهم وأفعالهم الحسنة والسيئة، فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته.. فيعفو عمن يشاء، ويُعاقب من يشاء.

يرانا إذا ما كذبنا أو اغتبنا أو أطلقنا أبصارنا فيما لا يحل لنا.

فإذا ما أراد عِقابنا عاقبنا: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا

عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [البقرة: ٥٩].

فهو سبحانه سريع الحساب: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل: ٥-١٠].

قيومية التعاهد والتربية للمؤمنين:

الله عَزَّوَجَلَّ يتعاهد المؤمنين بألوان من التربية التي من شأنها -إن أحسنوا التعامل معها- أن تضعهم في قالب العبودية له سبحانه، انظر -على سبيل المثال- ما حدث في غزوة حنين عندما قال بعض الصحابة: لن نهزم اليوم من قلة: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التوبة: ٢٥].

وفي حادث الإفك تتجلى التربية الربانية لعباده: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ١٦، ١٧].

أمثلة لأعمال يُفضل القيام بها:

١- لكي يشكل هذا الجانب الإيماني المهم جزءًا أصيلاً في يقيننا وإيماننا وينعكس على سلوكنا بدوام الافتقار إلى الله، وصدق التوجه إليه، والتعلق التام به، وعدم رؤية النفس إلا بعين الاستصغار والانتقاص... علينا أن نعيش مع هذا الجانب في القرآن وأن نتتبع صور القيومية ونتأملها ونجتهد في تفاعل المشاعر معها، وحبذا لو خصصنا لهذا الموضوع المهم أكثر من ختمة حتى نتشبع منه، ويهيمن مدلوله علينا.

٢- التفكر في الكون وما فيه من آثار تدل على تلك الحقيقة كشروق الشمس وغروبها، وتتابع الليل والنهار... وكذلك من خلال رؤية الأشياء بعد توقف المدد الإلهي عنها. وعلى سبيل المثال: جريان السفن في البحر يتم بقيومية التعاهد والرعاية والحفظ من الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا ما انقطع عنها هذا المدد توقفت في عرض البحر بلا حراك، بلا حول ولا قوة: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

٣- التفكر في النفس وما في الإنسان من دلائل الربوبية والقيومية، وهذه الدلائل تظهر بوضوح عند حدوث منع أو نقص أو اضطراب في حياة الإنسان، ككثرة نبضات القلب، أو تلعثم اللسان في الكلام، أو دخول رمش في العين، أو اختلاج عضلة من العضلات، أو الصداع، أو تغير المزاج، أو... إلخ.

٤- الإكثار من ذكر لا حول ولا قوة إلا بالله، وبخاصة بعد التفكر في صور القيومية في الكون والنفس، فمما لا شك فيه أن هذا الذكر يصفنا وصفًا دقيقًا، ويعبر عن الحقيقة التي ينبغي أن نعيش فيها... من هنا اشتدت الحاجة للإكثار منه لترسيخ مدلول الربوبية والقيومية في العقل والقلب، وتشييد بنيانها سريعًا.

٥- مناجاة الله والثناء عليه بذكر صور من ربوبيته وقيوميته علينا، كما كان الصحابة رضوان الله عليهم يرتجزون: «**اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا..**»[1].

۞ ۞ ۞

(١) مسلم (٣/ ١٤٢٧ برقم: ١٨٠٢).

النموذج الثامن:

الحكم العدل

والمعنى المراد الإيمان به من هذين الاسمين أن الله عَزَّوَجَلَّ يحكم بالعدل بين عباده، فيجزي المحسنين على إحسانهم، والمسيئين على إساءتهم، سواء أكان ذلك في الدنيا أم في الآخرة: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٣١﴾ ﴾ [النجم: ٣١].

وعندما يتمكن هذا المعنى من النفس فإن من شأنه أن يثمر خوفًا وورعًا وتقوى وحذرًا من الله عَزَّوَجَلَّ؛ ومن ثمَّ عدم مخالفة أمره، والمبادرة إلى طاعته، والمسارعة إلى التوبة والاستغفار كلما وقع العبد في ذنب من الذنوب.

كيف نؤمن بهذا الجانب؟!

ولكي يتمكن هذا الجانب الإيماني منا، لا بد من التعرف على صوره ومظاهره وتكرار عرضها على العقل فيزداد بها يقينًا، وعلى القلب فتشكل جزءًا أصيلًا من إيمانه.

وهنا يأتي دور القرآن الذي يفيض بتقرير قواعد هذا الجانب الإيماني، وعرض أشكال الجزاءات التي يجازي الله بها عباده، مع مزج ذلك كله بنماذج واقعية طُبقت عليها هذه الجزاءات على مدى التاريخ البشري.

البداية من العبد:

ومن الملاحظ أن القرآن يؤكد دومًا على أن ما يصيب العبد من خير أو شر فمن الله عَزَّوَجَلَّ، ومع ذلك فإن للعبد دورًا مهمًّا في استدعاء هذا الخير أو الشر، بمعنى أن الصلاح والفساد، والهدى والضلال، والسعادة والشقاء، والتوفيق والخذلان، وضيق الصدر وانشراحه، وتيسير الأمور وتعسيرها... كل هذه الأحوال لا تصيب العبد إلا إذا بدرت منه بداية تستدعيها: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣].

فأي تغيُّر في حالك، أو وحشة في صدرك، أو تعسير في أمورك، ليس إلا نتاج ما بذرته في وقت ما: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. فالله عَزَّوَجَلَّ لا يظلم أحدًا: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٢]. بل نحن الذين نظلم أنفسنا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس: ٤٤].

فبنو إسرائيل فضلهم الله على العالمين، ومكنهم في الأرض بما صبروا، وتحملوا ما فعله بهم فرعون: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ولما لم يحافظوا على هذه النعمة، وتمادوا في الظلم والطغيان حصدوا الثمار المرَّة: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٠].

فلا محاباة لأحد: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

إنه قانون يطبق على الجميع: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾ [النساء: ١٤٤].

تأمل قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤﴾.

فالأمر الإلهي سيصدر بعقابكم إن فعلتم ذلك، فلا محاباة لأحد، ولا كرامة لأحد إلا باستقامته وتقواه.

وفي سورة الأنعام، وبعد أن تتحدث الآيات عن إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وذريته من الأنبياء، يأتي التذكير بأن استمرار الكرامة باستمرار الاستقامة: ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾ [الأنعام: ٨٧، ٨٨].

فمن يرد المعية والولاية فعليه بالاستقامة: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠، ١١].

فالبداية من العبد: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

ولقد ذكر القرآن هذا القانون بشقيه في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: ٤٦].

ولقد طُبق هذا القانون بوضوح شديد في حياة الصحابة، ولعل ما حدث في غزوة أحد أبلغ مثال على ذلك، ففي البداية كان النصر المبين حليفًا للمسلمين تطبيقًا للقاعدة المذكورة، ولما خالفت طائفة منهم أمر الرسول ﷺ، وتركوا

أماكنهم من فوق جبل الرماة حدثت الانتكاسة وطبقت القاعدة أيضًا، ولقد أوضح القرآن هذا الأمر جليًّا في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

والقرآن مليء بمئات الآيات التي تؤكد هذه الحقيقة.

عاقبة الذنوب:

ومع تقرير القرآن للقواعد التي يتم من خلالها محاسبة الناس ومجازاتهم في الدنيا والآخرة، فإنه كذلك يعرض صور وأشكال تلك الجزاءات، سواء أكانت للمحسنين أم للمسيئين: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الجاثية: ٢١].

فالمحسنون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون... يتمتعون بالسعادة: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه: ١٢٣].

وبالحياة الطيبة: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

وبالكفاية والحماية من الله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ ﴾ [الزمر: ٣٦].

أما المسيئون فلقد أفاض القرآن في ذكر جزائهم على مستوى الأفراد أو الأمم، ليرتدعوا وليسارعوا بالفرار إلى الله وترك كل ما يخالف أمره: ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٠].

فعلى مستوى الأفراد نجد تحذير القرآن من الوقوع في المعاصي، مع عرضه

لصور العقوبات المنتظرة لمن يرتكبها، وإليك أمثلة على ذلك:

تعسير الأمور: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ ﴾ [الليل: ٨-١٠].

والمعيشة الضنك: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾ [طه: ١٢٤].

والخذلان: ﴿ لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ۝٢٢ ﴾ [الإسراء: ٢٢].

والتعرض للفتن: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٦٣ ﴾ [النور: ٦٣].

والتثبيط: ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ ﴾ [التوبة: ٤٦].

والعذاب الأليم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ ﴾ [النور: ١٩].

وتتصاعد العقوبات حتى تصل إلى مرحلة الاستدراج والإملاء: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ۝١٨٣ ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

عقوبات الأمم:

هذا على مستوى الأفراد، أما على مستوى الأمم فلقد ذكرت لنا آيات القرآن أشكال العقوبات التي يمكن أن تصيب الأمة إذا ما حادت عن أمر الله.. منها:

سلب النعم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٥٣ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

والجوع والخوف: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل: ١١٢].

ومنها: الخذلان والهزيمة: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وظهور الفساد وشيوعه بين الناس: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١].

وتولي الظالمين مقاليد الأمور: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

ومنها تخلي الله عن الأمة: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران: ٢٨].

نماذج قرآنية:

ومع ذكر القرآن لصور وألوان الجزاءات للمحسنين والمسيئين على مستوى الأمم والأفراد، فإنه كذلك يعرض نماذج تطبيقية لهذه الجزاءات؛ ليعتبر منها الناس فيحتذوا حذو المحسنين في إحسانهم، ويجتنبوا ما فعله المسيئون.

ومن هذه النماذج: قارون الذي اغتر بماله وقال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]، فانتقم الله منه شر انتقام: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص: ٨١].

وكذلك صاحب الجنتين الذي اغتر بما لديه: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٥، ٣٦] فماذا حدث له؟ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف: ٤٢].

وكذلك أصحاب الجنة: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ١٧-٢٠].

أما على مستوى الأمم فالأمثلة كثيرة، ولعل أبرزها ما حدث مع بني إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين بصبرهم، ثم غضبه عليهم وإنزال عقابه بهم لما عبدوا العجل وطغوا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢].

وكذلك ما حدث لسبأ عندما أعرضوا عن الشكر: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ [سبأ: ١٥-١٧].

أمثلة لأعمال يُفضل القيام بها:

١- هذا الجانب المهم يحتاج إلى رسوخه في اليقين واستحواذه على جزء أساس من الإيمان، ولم لا وهو من أهم دوافع الاستقامة على أمر الله... ولأن القرآن هو الوسيلة العظمى لبناء الإيمان واليقين، ولأنه كذلك قد أفاض في تقرير حقائق هذا الجانب الإيماني، فإن الواجب يحتم علينا أن نعيش طويلًا مع هذا المعنى في القرآن، ونتتبعه من خلال وردنا اليومي، ولا بأس من تخصيص ختمة أو

أكثر لتأسيس هذه القاعدة اليقينية والإيمانية، ويفضل أن يكون ذلك من خلال تتبع المحاور السـابقة والتي تقرر معنى «الحكم العدل»، وقاعـدة «البداية من العبد»، وأنواع الجزاءات والنماذج التي طُبقت عليها.

٢- التفكُّر اليومي في النقص الذي قد يحدث للواحد منَّا، كتعسـير الأمور أو وحشة الصدر أو تغيير أخلاق الناس عليه أو حرمان الرزق.... وربط ذلك بالذنوب، بمعنى أن نبحث عن مسـببات تلك الأشـياء، فالله عَزَّوَجَلَّ عدل لا يظلم أحدًا، ولا يعاقب الناس بلا سبب.

٣- كثرة الاستغفار وبخاصة بعد جلسة التفكر السابقة.

٤- ربـط آيات القرآن والتي تتحدث عن أسـباب هزائم الأمـم بواقع أمتنا، والبحث عن الأسباب التي جعلتنا في ذيل الأمم وتحت أقدام الكفار.

٥- سـرعة الإنابة إلى الله إذا ما اقترفنا ذنبًا من الذنوب، والتضرع إليه وطلب العفو والصفح.. لعله سبحانه يوقف تنفيذ العقوبة: ﴿ **وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

ومع التضرع والاسـتغفار تأتي الصدقة كوسـيلة مهمة لاسـتبدال رضا الله بغضبه.. قال رسول الله ﷺ: « **وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ..** »[1].

(١) رواه الطبراني في المعجـم الكبير (٨/ ٢٦١ برقم: ٨٠١٤) والبيهقي في شـعب الإيمان (١٠/ ٤٠٥ برقم: ٧٧٠٤)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

النموذج التاسع:

الإيمان بالله القهار

ومعنى القهار أي أن الله عَزَّوَجَلَّ إرادته غالبة على جميع خلقه... فكل ما في الكون خاضع له، ومنقاد لإرادته ومشيئته سبحانه.

جميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك، ولا يتصرف إلا بإذنه ومشيئته.. فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فإرادته الكونية غالبة.. لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.. فعال لما يريد.. غالب على أمره.

أهمية الإيمان بهذا الجانب:

هذا الجانب الإيماني العظيم من شأنه، حين يرسخ في اليقين والقلب، أن يثمر انكسارًا وتواضعًا لله عَزَّوَجَلَّ، واستسلامًا تامًّا له، وإذعانًا لأقداره فيردد العبد: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

كيفية بناء الإيمان واليقين بالله القهار:

لكي يتم بناء الإيمان واليقين بهذا الجانب المهم، لا بد أولًا من التعرف على مظاهره في الكون والنفس، وتكرار عرض مدلولها على العقل والقلب.. وهذا ما يفعله القرآن باستفاضة في عرض مظاهر صفة القهر، مع عرضه كذلك لنماذج

تطبيقية، حدثت على مر العصور السابقة.

وإليك -أخي القارئ- بعضًا من آثار هذه الصفة في الكون والنفس، وستلاحظ أن الجامع المشترك لهذه الآثار أن العبد يريد شيئًا والله يريد شيئًا آخر، فلا يحدث إلا ما شاء الله، ومن ذلك:

١- **الحمل ونوع المولود وعدد الأجنة**: المرأة تريد الحمل سريعًا بعد الزواج، ولكن لا يحدث إلا في الوقت الذي يشاء الله، وتريد أن يكون المولود ذكرًا -مثلًا- فيكون أنثى... تريد مولودًا واحدًا فيأتيها توأمان: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

٢- **مدة وجود الجنين في الرحم.. وموعد الولادة**. هذه كلها أمور لا يستطيع أحد أن يعرفها أو يغيرها، يقول تعالى: ﴿ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الحج: ٥]. أما الجنين فالأب -مثلًا- يتمنى أن يكون مشابهًا له، والأم تتمنى أن يشبهها هي.. ولا يحدث في النهاية إلا ما قدر الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾ [آل عمران: ٦].

٣- **النوم**: متى ستنام؟ وهل ستستيقظ أم لا؟ وهل ستستيقظ معافى أم مريضًا؟ منشرح الصدر أم ضائقه؟

تذهب للفراش وأنت متعب تريد النوم فلا يأتيك.. وفي أوقات أخرى يغلبك النوم في وقت لا تريده: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [الزمر: ٤٢].

٤- **المرض**: لا تريد المرض فيأتيك.. تريد الشفاء ولكنه لا يأتي إلا في الوقت

الذي شاءه المولى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٠].

٥- **الرزق**: الكل يريد الغنى، والواقع هو ما نشاهده من تباين الناس في أرزاقهم، فالأمر بيد الله وحده: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشورى: ١٢].

٦- **المطر**: متى سينزل؟ وأين؟ وبأي كمية؟ ومتى سيتوقف؟... كل ذلك بإرادة الله... نريد المطر، ونصلي صلاة الاستسقاء فلا يحدث شيء، بينما تغرق بلدان من كثرة الأمطار، فسبحان القهار العزيز في قضائه.

وكذلك السحاب: شكله... مكانه... مساحته... هل سيمطر أم لا؟ ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۚ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور: ٤٣].

٧- **الفلاح يبذر البذر في الأرض**... فأي البذر سينبت؟ ومتى سيكون الإنبات؟ وهل سينضج ثمارًا أم لا؟ ومتى ستخرج الثمار؟ وما هي كميته؟ وهل كلها ستكون بنفس الجودة؟ هذه الأمور كلها لا يملك الفلاح منها إلا انتظار فضل الله... فالأرض قد تُسقى بماء واحد.. والشجرة واحدة.. ومع ذلك نجد الثمار مختلفة في الطعم والحجم: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ۚ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ ﴾ [الرعد: ٤].

٨- **الظواهر الكونية**: الصواعق، البرق، الرعد، الرياح، البرد، الحر، السيول، الزلازل، البراكين، الجفاف؛ نحن لا نستطيع منع هذا كله؛ لأننا مقهورون بإرادة الله الغالبة: ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ ﴾ [الرعد: ١٣].

٩- أنظمة الحياة: لا نستطيع تغييرها فنحن مقهورون بها... ومن ذلك نظام الشمس، والقمر... والفصول الأربعة... تعاقب الليل والنهار، قوانين الجاذبية الأرضية، الاحتكاك... الاحتراق...

وكذلك أنظمة الجسم: نحن لا ندري ماذا يحدث داخلنا، ولا نستطيع وقف أي جهاز عن العمل فنحن مقهورون بها، ليس لنا اختيار فيها، ومثال ذلك: نظام التنفس، الدورة الدموية، الهضم، الامتصاص، المناعة، الإخراج، الجهاز العصبي، الهرمونات. وكذلك نظام الحياة فالطفل يصبح شابًّا ثم شيخًا ثم يهرم ثم يموت.

هذا النظام لم يستطع أحد من البشر أن يغيره أو يوقفه أو يتمرد عليه: ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾** ﴾ [الروم: ٥٤].

١٠- الموت: متى... أين... كيف؟

فأغلب البشر -إن لم يكن كلهم- لا يريدون الموت، ولكنه يأتيهم: ﴿ **نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾** ﴾ [الواقعة: ٦٠]، ﴿ **فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾** ﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧].

١١- النسيان والتذكر: ﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ** ﴾ [الأعلى: ٦، ٧].

نماذج تطبيقية من القرآن:

١- حمل السيدة سارة، زوجة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لإسحاق وقد كانت عقيمًا وعجوزًا: ﴿ **قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ** ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣].

٢- إنجاب زوجة زكريا ليحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٠].

٣- إنجاب مريم لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ دون أن يمسها بشر: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٤٧].

٤- نجاة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الحرق بالنار رغم إلقائه فيها: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

٥- ما حدث في الهجرة: أراد المشركون منع الرسول ﷺ، وأراد الله له الهجرة: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [التوبة: ٤٠].

٦- ما حدث في بدر: المسلمون كانوا يريدون العير، والله يريد النفير والقتال لينزل النصر على المؤمنين ويمحق الكافرين: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٧].

٧- علم فرعون أنه سوف يُبعث رسول إلى بني إسرائيل يخلصهم من بطشه، فأراد التخلص منه، فكان يذبح منهم جيلًا ويترك جيلًا ليخدمه... ولأن إرادة الله غالبة نجا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من الذبح، بل وتربى في بيت فرعون وعلى نفقته الخاصة:

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

٨- حرَّم الله عَزَّوَجَلَّ المراضع على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليعود إلى أمه كما وعدها ربها، فأمره سبحانه نافذ: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٢، ١٣].

ضابط لا بد منه:

من الواضح أن آثار صفات العزة والقهر الإلهي للعباد تدور حول الإرادة الكونية فيما ليس للعبد فيه اختيار.. أما الإرادة الشرعية فالله عَزَّوَجَلَّ لا يجبر أحدًا على معصيته وإلا لانتفت حرية الاختيار التي خص الله بها بني آدم... نعم قد يعاقب الله عبدًا بحرمان من طاعة، ولكن هذا العقاب يكون نتيجة أفعال ارتكبها العبد بمحض إرادته، كما تم بيان ذلك في نموذج الحكم العدل، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم.

ولعل ما يؤكد هذا المعنى هو التعرف على الله الودود الذي يحب عباده ويريد لهم الخير، ويحرص على هداهم جميعًا، هذه المعرفة عندما تستقر في ذهن الإنسان فإن من شأنها أن تطرد أي خاطرة حول قهر الله لعباده وجبرهم على فعل المعاصي.

والذي يؤكده كذلك هو التعرف على الله الحكيم -كما سيأتي بيانه- فهذا من شأنه أن يسكب في النفس السكينة والطمأنينة بأن الله عَزَّوَجَلَّ له حكمة وراء كل مشيئة يشاؤها.. هذه الحكمة تحمل في طياتها الرحمة والخير للبشر وإن لم تَبْدُ في الظاهر.

أمثلة لأعمال نستصحبها:

١- علينا أن نتتبع الآيات التي تتحدث عن هذا الجانب الإيماني المهم سواء أكانت تقرر قاعدته، أم تُعرِّف بآثاره، أم تعرض نماذج تطبيقية له، مع الأخذ في الاعتبار ضرورة تجاوب الفكر والعاطفة مع تلك الآيات حتى تُصبح يقينًا راسخا في العقل، وحتى تشكل جزءًا من إيمان القلب، وحبذا لو خصصنا ختمة أو أكثر لهذا الموضوع، فكثرة تكرار آياته على العقل والوجدان من شأنها أن تُسرع بتشييد بنيانه اليقيني الإيماني؛ ومِن ثمَّ ظهور ثماره العظيمة.

٢- التفكر في الكون والنفس، والبحث عن آثار هذا الجانب وربطها بآيات القرآن ما أمكن.

٣- التفكر في أحداث الحياة وما تحمل من آثار لصفة القهر، كالنوم والنسيان والأرق والمرض وتغيُّر المزاج.

٤- الالتزام بدعاء النوم: « **اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مِتَّ، مِتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ**»[1].

٥- الاجتهاد في تقديم المشيئة قبل التحدث عن أي شيء نريد عمله في المستقبل.

٦- الإكثار من استخارة الله وتوسيع دائرتها لتشمل كل ما نريد القيام به.. قدر المستطاع.

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٦٨ برقم: ٦٣١١) واللفظ له، ومسلم (٤/ ٢٠٨٢ برقم: ٢٧١٠).

النموذج العاشر:

الإيمان باللّه الرقيب القريب

الله عَزَّوَجَلَّ قريب من عباده، يحيط بهم جميعًا.. لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لا في قاع البحر، ولا تحت سفح الجبال.. السر عنده علانية، والغيب عنده شهادة.

أهمية الإيمان باللّه الرقيب القريب:

عندما يستقر في يقين العبد قرب الله، وإحاطته به، ورؤيته له، ورقابته الدائمة عليه؛ فإن هذا من شأنه أن يدفعه إلى الحياء منه؛ ومن ثمَّ الاستقامة على أمره، وتحري الصدق في أموره كلها، ويؤدي كذلك إلى شعوره بالأمان والطمأنينة وهو يستشعر هذا القرب: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

ومن ذلك أيضًا أن يُسرِّي عن العبد ما يراه ويسمعه عن ظلم الظالمين، وبطش المتجبرين، فربه ليس بغافل عنهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ومن أجلِّ ثمرات الإيمان بهذا الجانب: عدم شعور العبد بالوحشة إذا ما كان بمفرده، بل على العكس فهو ينتظر تلك اللحظات ليخلو بربه ويأنس به ويبث إليه أشواقه ويسأله حوائجه.

ومن ثمراته كذلك: توطيد العلاقة بين العبد وبين ربه واقترابه منه حتى يصل إلى مرحلة الإحسان، فيعبده ويخاطبه كأنه يراه.

كيفية الإيمان بهذا الجانب:

لو سئل أيٌّ منا عن مفهومه لهذا الجانب الإيماني فسينبري في شرح معناه، وقد يسرد الآيات والأحاديث التي تقرره، ولكن إذا ما نظرت إلى واقعنا فإنه سيصعب عليك رؤية ثمرات الإيمان بهذا الجانب، من استقامة وصدق وشعور بالأمان وحب الخلوة بالله، وهذا يدل على عدم رسوخ مدلوله في يقيننا، وعدم استحواذه على جزء كبير من إيماننا.

من هنا اشتدت الحاجة إلى طريقة نُعمق بها حقيقة هذا الجانب في عقولنا وقلوبنا.. وهنا يأتي دور القرآن العظيم الذي أفاضت آياته في الحديث عنه وعرض آثاره في حياة الناس.

وإليك -أخي القارئ- بعضًا من صور تناول القرآن له:

* **قرب الله من عباده:**

الله عَزَّوَجَلَّ قريب من عباده جميعًا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]. ومن أجلّ مظاهر هذا القرب أنه يسمع دعاءهم ونداءهم ولو كان همسًا أو في السر: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

* **الإحاطة التامة بخلقه ومعيته لهم:**

الله عَزَّوَجَلَّ قريب من خلقه ومحيط بهم: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ

﴿رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧].

* رقابة الله لخلقه:

فالله عَزَّوَجَلَّ رقيب على عباده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]. شهيد على أعمالهم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ﴾ [يونس: ٦١] فلا يمكن لمخلوق أن يختبئ في مكان لا يراه الله فيه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

يرانا ونحن نضحك، ونحن نأكل، ونحن نصلي: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢١٩].

* عالم الغيب والشهادة:

فالله عَزَّوَجَلَّ يعلم كل شيء: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩].

يعلم ما في أنفسنا وما تخفي صدورنا: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

فباطنُنَا أمَامَه كظاهرِنا، وسرُّنا كعلانيتِنَا، فلا يوجد شيء يمكن أن نخفيه عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الملك: ١٣].

* **السميع:**

«فقد وسِع سمعُه الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، لا تختلف عليه، ولا تشتبه عليه، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها.. لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه كثرة المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين وذوي الحاجات»[١].

﴿ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴿٨٠﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

* **إحصاؤه لأعمال عباده:**

ومع علم الله وإحاطته بعباده ورقابته لهم فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُحصي عليهم أعمالهم: ﴿ **أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ** ﴿٦﴾ ﴾ [المجادلة: ٦]، فيحاسبهم عليها: ﴿ **وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد: ٤١]؛ فيجزي المحسنين على إحسانهم، والمسيئين على إساءتهم، أو يعفو عنهم، وذلك في الدنيا والآخرة.

تطبيقات عملية:

ومع استفاضة القرآن في الحديث عن هذا الجانب الإيماني المهم، فقد استفاض كذلك في عرض نماذج عملية على مدى تاريخ البشرية تدل على علم الله وإحاطته بجميع خلقه.

تأمل قوله تعالى: ﴿ **قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ** ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة: ١]. وتأمل ما قالته السيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ

---

(١) الوابل الصيب لابن القيم (ص: ١٢٦)، مكتبة المؤيد- الرياض.

تُكَلِّمُهُ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾»(١).

أما قربه من عباده وسماعه نداءهم له فالنماذج التي تدل عليه كثيرة منها ما حدث مع زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٣-٦]. فكانت الإجابة: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم:٧].

* والقرآن كذلك يحدثنا عن إحاطة الله بجميع خلقه من خلال عرضه لعدة نماذج عملية؛ كإخباره تعالى لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بما يخطط له فرعون وجنوده: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾ [الدخان: ٢٣، ٢٤].

* أما المعية فتتجلى أثناء سرد قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع السحرة: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ۝٦٦ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ۝٦٩﴾ [طه: ٦٥-٦٩].

* ومن النماذج التي تدل على علمه التام بالسر والعلن إخباره سبحانه لرسوله ﷺ بأحوال المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام: ﴿يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وكذلك إخباره ﷺ بما كان من بعض أزواجه:

---

(١) صحيح البخاري (٩/ ١١٧).

﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [التحريم: ٣].

* أما سرعة الحساب فتتمثل في هذا النموذج: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ٥٥].

أعمال يُفضل القيام بها وبأمثالها:

١- من الأفضل أن نقوم بتتبع الآيات التي تتحدث عن هذا الجانب الإيماني ونماذجه العملية، إذا ما أردنا أن يرسخ مدلوله في يقيننا ومشاعرنا، مع الأخذ في الاعتبار أهمية تجاوب المشاعر مع الآيات ليزداد الإيمان وتتحسن العلاقة مع الله عَزَّوَجَلَّ؛ فتظهر ثمار المراقبة اليانعات، وحبذا لو خصصنا ختمة أو أكثر لذلك.

٢- التعوُّد على مناجاة الله، والحديث معه في كل ما يخص أمورنا، ولنا في مناجاة زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ لربه أبلغ مثال على ذلك، فهو يحدثه وكأنه يراه... وهذا ما نريده.. أن نتحدث مع الله ونستفيض معه في الحديث كما نصح المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ الحواريين بقوله: «كَلِّمُوا اللهَ كَثِيرًا وَكَلِّمُوا النَّاسَ قَلِيلًا، قَالُوا: كَيْفَ نُكَلِّمُ اللهَ كَثِيرًا؟ قَالَ: اخْلُوا بِذِكْرِهِ، اخْلُوا بِدُعَائِهِ، اخْلُوا بِمُنَاجَاتِهِ»[١].

٣- ومع مناجاة الله علينا أن نتعود سؤاله كل شيء.. جاء في الأثر أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لربِّه: يَا رَبِّ، إِنَّهُ لَتَعْرِضُ لِيَ الْحَاجَةُ مِنَ الدُّنْيَا. فَأَسْتَحْيِي أَنْ أَسْأَلَكَ. قَالَ: سَلْنِي حَتَّى مِلْحَ طَعَامِكَ وَعَلَفَ حِمَارِكَ»[٢].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٤)، مختصر قيام الليل (١/ ٦٢).
(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٩).

ورأى عروة بن الزبير رجلًا يصلي صلاة خفيفة سريعة فدعاه وقال له: أَمَا كَانَتْ لَكَ إِلَى رَبِّكَ حَاجَةٌ؟ إِنِّي لَأَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ فِي صَلَاتِي حَتَّى أَسْأَلَهُ الْمِلْحَ[1].

٤- التعوُّد على أن نستودع الله ما نريد حفظه بخاصة الدين، وكذلك العافية والأموال وما نملك.. لنا ولأهلنا..

٥- ليكن شعارنا: الله معي.. الله يراني.. الله ينظر إليَّ.

۞ ۞ ۞

(١) صفة الصفوة (٣/ ٣٥٠) والزهد لأحمد بن حنبل (١/ ٣٠١ برقم:٢١٧٤).

النموذج الحادي عشر:

الإيمان باللّه القدير

الله عَزَّوَجَلَّ ذو قدرة مطلقة.. لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.. قدرة لا حدود لها، ولا يمكن تخيُّل حجمها أو أبعادها.. كل شيء عليه هين: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [لقمان: ٢٨].

هذا المعنى العظيم عندما يستقر في يقيننا، ويتشابك مع مشاعرنا فإن من شأنه أن يعظم قدر الله عندنا، ويزيدنا ثقة مع ثقتنا فيه سبحانه، وفي وعوده، ويُصغِّر في أعيننا ما عند الناس من مظاهر للقدرة الزائفة، وبخاصة أعداؤنا الذين يظنون أنهم قد ملكوا الأرض بما عندهم من إمكانات لا تساوي في قدرة الله وقوَّته جناح بعوضة.

ومن فوائد الإيمان العميق بهذا الجانب أيضًا: اليقين بأنه لا يمكن لأحد أن يفر من الله، ومن مشيئته، وأنه ليس أمامه إلا الفرار إلى الله والاستسلام والخضوع والاستكانة إليه، فيردد: لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك.

من مظاهر القدرة الإلهية:

ولكي يتم غرس المعنى داخلنا لا بد من تكرار عرضه بصور مختلفة على عقولنا وقلوبنا، وهذا ما يفعله القرآن باستفاضة في الحديث عن صفة القدرة الإلهية

ومظاهرها، وكثرة عرضه لنماذج تطبيقية حدثت عبر القرون الماضية.

وإليك -أخي القارئ- بعضًا من مظاهر القدرة الإلهية:

قدرة الخلق والإبداع:

فلننظر إلى السماء وحجمها، والجبال وعظمها، والبحار واتساعها، والنبات بأنواعه وألوانه الكثيرة، والأسماك، والطيور، والدواب،.. كل هذه المخلوقات خلقها الله عَزَّوَجَلَّ من العدم: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النور: ٤٥].

قدرة مطلقة تشهد عليها هذه المخلوقات، وينبغي أن تشهد عليها أنت أيها الإنسان، الذي خلقك الله من الماء، وصورك فأحسن تصويرك: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان: ٥٤]، ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الروم: ٢٠].

قدرة الحفظ والإمداد:

فمع قدرة الخلق المطلقة تأتي قدرة الحفظ.. حفظ هذا الخلق، فالسماء خلقها الله عَزَّوَجَلَّ بلا عمد وتولى سبحانه حفظها: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ﴾ [الرعد: ٢].

حفظ حركة الشمس المنتظمة وتقلب الليل والنهار: ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٧].

ومع الحفظ يأتي الإمداد.. إمداد جميع خلقه بالرزق وبأسباب الحياة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾ [هود: ٦]. وإذا ما أردت مثالًا حيًّا على القدرة المطلقة للخلق والحفظ والإمداد، فانظر إلى بستان من البساتين، وما فيه من ألوان الزهور والنباتات، كلها تخرج من قطعة أرض واحدة، وتُسقى بماء واحد، ولكن النتاج مختلف، فهذه شجرة كبيرة ذات جذع ضخم، وتلك شجيرة صغيرة تحمل ثمارًا جميلة اللون والطعم، وأخرى منبطحة على الأرض لا ساق لها: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد: ٤].

قدرة إنفاذ المشيئة:

فالله عَزَّوَجَلَّ القدير المقتدر إذا أراد شيئًا فعله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس: ٨٢].

يقدر المقادير ولا يعجزه إنفاذها، فكل شيء عليه هين: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

قدرة مطلقة: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝٤٤﴾ [فاطر: ٤٤].

القدرة الخارقة للسنن:

الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي وضع السنن الحاكمة للحياة، وهو وحده القادر على تبديلها بقدرته المطلقة، فهو سبحانه جعل نهاية لحياة الإنسان في الدنيا، فلا يمكنه

العودة إليها مرة أخرى، لكنه سبحانه هو وحده الذي يقدر على ذلك حين يشاء: ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [البقرة: ٧٢، ٧٣].

قدرة الجزاء:

فمن صور القدرة الإلهية أنه سبحانه يقدر على مجازاة المحسنين على إحسانهم والمسيئين على إساءتهم: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

ومن صور القدرة على الجزاء: قدرته سبحانه على معاقبة أعدائه: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر: ٤١، ٤٢].

وكذلك نصرة أوليائه: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢].

تأمل ما حدث في غزوة الأحزاب ونصرة الله لعباده المؤمنين دون أسباب: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

القدرة المحيطة بكل شيء:

ومع هذه القدرة المطلقة فإنها كذلك محيطة بجميع الخلق: ﴿ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٨]، فلا يمكن لأحد أن يفر من الله بأي حال من الأحوال.

فمن ذا الذي يستطيع أن يفر من قضائه وقدره؟! ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٧].

ومن يستطيع أن يفر من الموت؟ ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

وهل يستطيع أحد أن يفر من الحساب؟ ﴿ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ ﴾ [القيامة: ١٠-١٢].

نماذج تطبيقية:

ومع هذه الصور المختلفة للقدرة الإلهية التي استفاض القرآن في ذكرها، نجد أنه كذلك قد عرض لنا نماذج تطبيقية كثيرة لهذه الصور التي حدثت على مر الأزمان، ومن ذلك:

* ما حدث لزكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من إنجاب زوجته ليحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع كونها عاقرًا، ومع كِبر سنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: ٨، ٩].

* خلق عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من أم فقط دون وجود أب: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم: ٢٠، ٢١].

* ومن ذلك أيضًا: نوم الفتية في الكهف ثلاثمائة عام وقدرته سبحانه على حفظهم أحياء وإيقاظهم في الوقت الذي شاءه: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ

كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾ [الكهف: ١٨، ١٩].

* ومن النماذج التي يعرضها القرآن لقدرة الإحاطة بكل شيء، وأنه لا يمكن لأحد أن يفر من الله قوله تعالى: ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ ﴾ [العنكبوت: ٣٩، ٤٠].

* ومن ذلك أيضًا: أن صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وعد قومه ثلاثة أيام جزاء تكذيبهم وقتلهم الناقة، فهل استطاعوا أن يفروا من العذاب أو ينجوا منه؟ مع أن المدة كانت كافية لذلك: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ ﴾ [هود: ٦٥-٦٨].

* ومن النماذج العجيبة للقدرة الإلهية الخارقة للعادة ما حدث للنبي عزير عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ومما يثبت هذه القدرة الإلهية أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تعهد بحفظ القرآن من التحريف والتبديل بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩].

ورغم محاولات الكثيرين من أصحاب الفرق الضالة لتحريف القرآن، وإضافة أو حذف ولو حرفًا واحدًا منه إلا أن محاولاتهم قد باءت بالفشل -بفضل الله- لتؤكد أن وعد الله حق وأن قدرته لا حدود لها.

أعمال يُفضل القيام بها:

١- يحتل هذا الجانب في القرآن مساحة كبيرة، سواء أكان ذلك من خلال تقرير حقيقة القدرة الإلهية، أم التعريف بآثارها في الكون والنفس، أم عرض نماذج تطبيقية لها، فعلينا ونحن نقرأ القرآن أن نعيش مع هذا الجانب بمحاوره الثلاثة، وأن نجتهد في استثارة مشاعرنا معها، وأن نكرر كل آية تؤثر فينا، حتى يتحول مدلولها إلى يقين راسخ في عقولنا، ويشكل جزءًا أصيلًا من إيماننا، مما يثمر ثقة في الله ويقينًا بوعده، ويزيدنا تعلقًا به، وزهدًا في الناس.

٢- ممارسة عبادة التفكر: فمظاهر القدرة الإلهية بادية في كل شيء.. في حفظ السماء من السقوط على الأرض.. في تعاقب الليل والنهار.. في كل مخلوق جديد.

فعلينا أن نتفكر في آيات الله المبثوثة في كل مكان ونستدل من خلالها على قدرة المقتدر سبحانه: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾**﴾ [البقرة: ١٦٤].

٣- التفكر في أحداث الحياة المتغيرة والتي تحمل في طياتها دلائل القدرة الإلهية: كتغير الطقس المفاجئ، وهبوب الرياح ثم سكونها، وكالأعاصير

والفيضانات المدمرة، وكالرعد والبـــرق والصواعق، وكالبراكين والزلازل، ولعل الزلزال الذي ضرب جنوب شرق آسيا وراح ضحيته عشرات الآلآف[1] دليل على هذه القدرة غير المتناهية التي تضاءلت وتلاشت بجوارها كل قدرات البشر الوهمية الزائفة.

٤- من الأعمال المهمة التي ســيكون -بمشــيئة الله- لهــا دور كبير في بناء الإيمان في هذا الجانب اســتصحاب ذكر «لا إله إلا الله، وحده لا شــريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير».

فهذا الذكر بمثابة شــعار للقدرة الإلهية.. علينا أن نكثــر من ترديده، على أن نسبقه بالتفكر في مظاهر القدرة ليكون الذكر معبرًا عن الحالة القلبية؛ فينطلق منها، ويعود أثره بعد ذلك إليها بمزيد من الإيمان.

ومن أهم الأوقات التي ينبغي أن نردد فيها هذا الذكر: قبل شــروق الشــمس وقبــل غروبها، ففي هذين الوقتين تتجلى بوضوح مظاهر القدرة الإلهية في تعاقب الليل والنهار، فعلينا أن نحرص على ذلك ما استطعنا.

۞ ۞ ۞

(١) كان ذلك في ٢٦ ديسمبر (٢٠٠٤) م - ١٤ ذي القعدة ١٤٢٥ هـ.

النموذج الثاني عشر:

الإيمان بالله الحكيم

من الأمور التي ينبغي الإيمان بها أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الحكيم، فما من مشيئة يشاؤها سبحانه إلا ووراءها حكمة، وما من مخلوق من مخلوقاته إلا وله حكمة في خلقه، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يخلق شيئًا عبثًا: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

أهمية الإيمان بالله الحكيم:

مما لا شك فيه أنه إذا ما تم غرس قواعد الإيمان واليقين بهذا الجانب في القلب والعقل، فإن ذلك من شأنه أن يثمر رضا وطمأنينة وسكينة، وأن يجعل الواحد منا يتعامل مع الأقدار باختلافها وتنوعها بهدوء وتسليم، ولِمَ لا وقد أيقن أن لربه حكمة وراء كل مشيئة يشاؤها له، وإن لم تظهر تلك الحكمة فهو يعلم أن قدرته البشرية تعجز عن استشعار كل حِكَم الحكيم بما في ذلك الأقدار المؤلمة وما تخبئه في طياتها من حِكَم، وأن هذه الحكم تصب في مصلحته.

نعم، قد لا تبدو أمام العبد الحكمة من وراء الأحداث التي تمر به ولكن ثقته بربه، وسابق معرفته به، وتمكُّن هذا الجانب الإيماني من قلبه وعقله... كل هذا سيدفعه للتسليم بقضاء الله وقدره، بل والرضا به مهما كان هذا القدر مؤلمًا.

من هنا كان من الضروري التعرف على الله الحكيم من خلال القرآن، وصور ومظاهر حكمته في الكون والنفس؛ لتستقر هذه العقيدة في اليقين، وتشكل جزءًا من الإيمان.

معنى الحكمة:

تحدث القرآن كثيرًا عن هذا الجانب الإيماني من خلال تقريره ووصفه لمعنى الحكمة، ومن خلال عرضه لصورها وسرد النماذج التطبيقية لها على مر العصور والأزمان.

ويتجلى تقرير معنى الحكمة في قوله تعالى: ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ ﴾ [النساء: ١٩].

وقوله: ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ ﴾ [القمر: ٤، ٥].

من مظاهر الحكمة:

مظاهر الحكمة بادية في كل شيء خلقه الله عَزَّوَجَلَّ، وبادية كذلك في آياته ومشيئته التي يشاؤها لعباده، ومن تلك المظاهر:

الحكمة في المخلوقات:

فكل ما في هذا الكون قد خلقه الله تعالى بالحق: ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [الجاثية: ٢٢]، وكل مخلوق له هدف وغاية من خلقه: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ ﴾ [الروم: ٨].

فالإنسان خُلق لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ بالغيب، والأرض هي المكان الذي يمارس فيه هذه العبادة.. فما الأرض إلا قاعة امتحان يؤدي فيها البشر اختبار العبودية، وكل شيء على هذه الأرض مخلوق للإنسان.. وظيفته تسهيل مهمته التي خُلق من أجلها ومساعدته على النجاح في أدائها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩].

فمن المخلوقات ما خلقه الله عَزَّوَجَلَّ ليحفظ حياة الإنسان مثل الطعام والشراب، ومنها ما يُسهِّل عليه الحياة، فلا ينشغل بأمور أخرى ويترك العبادة كالدواب التي تحمله من مكان لآخر.. هذه الدواب لو لم تُخلق لصارت الحياة شاقة لا تُحتمل.. تأمل قوله تعالى؛ لندرك بعض الحكم من خلقها: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ ﴾ [النحل: ٥- ٧].

ومن أجلِّ الحكم في خلق المخلوقات التي نراها حولنا في كل مكان: الاستدلال بها على معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، فهو سبحانه قد طالبنا بعبادته بالغيب، وهذه العبادة لن تتم بالصورة المرجوة إلا من خلال معرفتنا به سبحانه حق المعرفة، فأكثر الناس عبودية لله: أعلمهم به.

والله عَزَّوَجَلَّ لا تدركه الأبصار، ولا يمكن لأحد من البشر أن يراه في الدنيا ليتعرف إليه.. فكيف لنا إذن أن نعرفه؟!

أخبرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن له أسماء وصفات، وقد أودع أسرارها ومظاهرها في مخلوقاته، فكل مخلوق يحمل شهادة تعريف بالله عَزَّوَجَلَّ علينا أن نقرأها لنعرف

ربنا من خلالهـــا، فينعكس ذلك على عبادتنا لـــه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

فالتفكر في مخلوقات الله قاد هؤلاء الصالحين إلى إدراك الحكمة من خلقها: ﴿ مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا ﴾؛ مما انعكس على عبوديتهم لربهم: ﴿ سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ﴾.

فما خلق الله شـــيئًا في هذا الكون من باب العبث -حاشاه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ [ص: ٢٧] بل لحكم عظيمة.

الحكمة من التشريع:

ومن مظاهر الحكمة العظيمة.. الشـــريعة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فما من تشريع يشرعه الله لعباده إلا لحكمة تصب في مصلحتهم.

نعـــم، قد يكون ظاهر هذا التشـــريع فيه شـــدة على البعض، لكنـــه فيه رحمة للمجموع، كالقصاص في القتلى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٩] فتطبيق حكم القصاص على القليل يحيي الكثير والكثير.

وكالقتال في ســـبيل الله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكغض البصر: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠].

الحكمة من الآيات الكونية:

الله عَزَّوَجَلَّ يرسل لنا رسائله من خلال الآيات الكونية، والحكمة العظيمة من هذه الرسائل هي التعريف به سبحانه، والانتباه لحقيقة وجودنا في الدنيا، وأننا سنموت في أي لحظة ثم نلقاه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩].

فالبرق آية تخويف بالله وجبروته، وكذلك فهو آية طمع في رحمته لما يؤدي إليه في الغالب من نزول المطر: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الروم: ٢٤].

الحكمة من الابتلاء:

الله عَزَّوَجَلَّ يبتلي عباده بالنقص في أموالهم، أو صحتهم، أو في تسلط أعدائهم عليهم، أو غير ذلك من صور الابتلاء.

هذا الابتلاء قد يحمل في ظاهره الشر لكنه له حكم عظيمة تصب في مصلحة هؤلاء العباد، فالابتلاء بضيق الرزق له حكمة: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧].

أرأيت أن ضيق ذات اليد رحمة من الله عَزَّوَجَلَّ بعباده.

أما العذاب والنقص الذي يبتلي به الأفراد أو الأمم ففيه حكم عظيمة، وذلك في كونه رسالة تذكير بالله، وحثًا للجميع على العودة إليه: ﴿وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الزخرف: ٤٨].

فظهور الفساد في الأرض عقاب من الله لعباده العاصين، ولكنه عقاب يحمل

في طياته رحمة بهم: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الروم: ٤١].

الحكمة من أحداث الحياة:

لله عَزَّوَجَلَّ حِكَم من وراء كل حدث يحدث للعبد في يومه، فما أحداث الحياة إلا آيات تعريف بالله عَزَّوَجَلَّ وقدره العظيم، وبالنفس وقدرها الصغير، وبالدنيا وقدرها الحقير، وبالآخرة وقدرها المهول: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [غافر: ٨١].

وعندما يُحسن الواحد منا قراءة تلك الآيات والرسائل فإن هذا من شأنه أن يعظم قدر الله عنده، ويصغر قدر نفسه، ومن شأنه كذلك أن يجعله يتجافى عن دار الغرور وينيب إلى دار الخلود.. ومن نماذج هذه الرسائل حدوث أشياء لا يريدها الإنسان، ولو كان يعلم بإمكان حدوثها لأخذ حيطته: ﴿ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] فالإنسان علمه محدود.. جاهل بالغيب، وهذا من شأنه - إذا أحسن التعامل مع أحداث الحياة التي تؤكد تلك الحقيقة - أن يؤدي به إلى استصغار قدر نفسه والتعلق الدائم بربه.

ومن هذه الرسائل رؤية الأشياء المخيفة كالحيوانات المفترسة، ورؤية الفئران والحشرات المقززة، فهذه رسالة تذكرنا بحقيقة ضعفنا؛ ومن ثَمَّ مدى احتياجنا لحماية الله لنا.

ومنها رسائل التذكير بمدى عجزنا عن إنفاذ إرادتنا، ويمثلها قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وصور ذلك كثيرة، فأنت

تريد النوم فيصيبك الأرق، وتريد الاستيقاظ في وقت ما فلا تستيقظ.. تريد أن تلد زوجتك ذكرًا فتلد أنثى و...

ومنها رسائل التذكير بمدى فقرنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك: ٣٠]. وأشكال هذه الرسائل كثيرة ويمثلها المرض بجميع صوره، ونقص الإمدادات كانقطاع الماء، وتعطيل الدابة، و...

ومنها رسائل التذكير بحقارة الدنيا وأنها دار فراق: كالموت المفاجئ للبعض، وتغير أحوال الناس من الصحة للمرض، ومن العز للذل، ومن الغنى للفقر.

نماذج قرآنية:

ومع إفاضة القرآن في بيان صور الحكمة، فقد أفاض كذلك في بيان نماذج تطبيقية لها حدثت على مر الأزمان والعصور.

من ذلك ما حدث لأهل الكهف، فقد ظلوا نائمين ثلاثمائة عام.. لماذا هذا الوقت تحديدًا.. ولماذا استيقظوا فترة قليلة ثم ماتوا بعدها.. كل ذلك لحكم عظيمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ [الكهف: ٢١].

لقد بُعثوا في زمان ينكر بعض الناس فيه البعث، ولإثبات تلك القضية أحياهم الله ثم أماتهم بعد انتهاء مهمتهم ورؤيتهم تمكين الدين بأم أعينهم.

ومن النماذج كذلك ما حدث لفرعون وقومه من ابتلاءات بيَّن لنا القرآن الحكمة من ورائها بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

وفي قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الخضر أبلغ مثال لمظاهر الحكمة في المشيئة، والتي تبدو من الناحية الظاهرية مؤلمة أو غير منطقية: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الكهف: ٧٩-٨١].

وتجلت مظاهر الحكمة العظيمة في غزوة بدر، فالصحابة خرجوا يريدون العير، والله يريد أن ينتصر الحق، ويزهق الباطل.. يريد من المسلمين أن يقاتلوا الكفار، والمسلمون خائفون لأنهم لم يخرجوا من أجل ذلك، ولم يستعدوا له: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الأنفال: ٥-٧].

أعمال يفضل القيام بها وبأمثالها:

١- تتبُّع مظاهر الحكمة والنماذج التطبيقية لها من خلال وردنا القرآني، وحبذا لو تم تخصيص ختمة أو أكثر لهذا الموضوع المهم، مع العمل الدائم على تجاوب الفكر مع المشاعر، حتى يرسخ مدلوله في العقل والقلب وينعكس على السلوك.

٢- التفكُّر في مخلوقات الله والاجتهاد في البحث عن الحكمة من خلقها: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

فننظر إلى السماء ونتفكر فيها وفي حكمة خلقها بهذا الاتساع، وننظر إلى السحاب وإلى الجبال وإلى كل شيء.. تأمل قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠].

أرأيت الحكمة من خلق الورود والأزهار وغيرها من النباتات والتي من شأنها أن تثير البهجة في النفس، لينطلق الإنسان بعد رؤيتها فرحًا سعيدًا؛ فيؤدي العبادة بروح جديدة؟!... وهكذا.

٣- التفكُّر في خلق الإنسان وما فيه من حكم عظيمة.. ومن ذلك التفكُّر في العينين ولماذا لم تكن الرؤية بعين واحدة.. والتفكُّر في مكانها لو كان أعلى من ذلك أو أسفل من ذلك.. والتفكُّر في مكان الأذنين وتركيبيهما... والفم، ولم هو في هذا المكان، والشفتين ولماذا لا يوجد بهما عظام.. واليدين ووضع الأصابع والمفاصل فيهما... وهكذا.

٤- التفكُّر في أحداث الحياة وحسن قراءة الرسائل الإلهية التي يرسلها الله لعباده، والاجتهاد في معرفة الحكمة من ورائها، وهذا يشمل كل ما يمر بالإنسان من أحداث.. فهناك رسائل منع ونقص في صحة أو مال أو رزق.

وهناك رسائل عطاء وتوفيق.

وهناك رسائل عزة وقهر كالمرض والأرق والنسيان.

وهناك رسائل تعريف بحجم الإنسان، وأنه ضعيف وفقير ومحتاج إلى الله في كل طرفة عين.

والسَّعيدُ مَن أحسَنَ قراءتها وتعرَّف مِن ورائها على الله الحكيم.

النموذج الثالث عشر:

الإيمان بالله العزيز

العزة هي الرفعة، والقدرة والقهر والمنعة، والعزيز هو القادر، القاهر، المنيع الذي لا يُغالب، والله عَزَّوَجَلَّ عزيز عزة مطلقة ودائمة: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠]، ولا يملك أحد من البشر شيئًا من العزة، فالكل سواء: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس: ٦٥].

فلا قوة إلا قوة الله، ولا قدرة إلا قدرته، ولا ملك إلا ملكه، ولا علم إلا علمه، ولا مشيئة إلا مشيئته، ولا رفعة إلا به سبحانه، فالبشر جميعًا يستوون أمام الله عَزَّوَجَلَّ في ذلهم وعدم وجود شيء ذاتي يرتفعون به، وفي الوقت نفسه فإن قيمتهم عنده يحددها إيمانهم وتقواهم: ﴿ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فالعلو عند الله مرتبط بالإيمان، فإذا نقص نقصت قيمة العبد عند ربه وظل يهوي شيئًا فشيئًا: ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ ﴾ [طه: ٨١].

أهمية الإيمان بالله العزيز:

الإيمان العميق واليقين الراسخ بهذا الجانب المهم له دور كبير في تخليص العبد من كل صور العزة الزائفة التي يدعيها، مثل العزة بالمال أو بالجاه أو بالمنصب أو بالثياب أو بالسبق أو باللغة أو بالنسب أو الأصدقاء أو بالقوة أو بالجمال أو...

ومن فوائده كذلك أنها تطرحه ذليلًا منكسرًا على باب مولاه يلتمس منه العزة، فهو بدونه لا قيمة له.. لا مال.. لا قوة.. لا قدرة.. لا علم.. لا أي شيء.

ومن ثماره أيضًا أنها تُبْعِد عن العبد التفاخر والمباهاة والتكبر على الآخرين، ولِمَ لا ومن خلال عمق الإيمان بالله العزيز يرى العبد حجمه الحقيقي، ويرى في الوقت نفسه حقيقة ما حباه الله من مواهب وأسباب، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لو شاء أن يرفعها عنه لرفعها وقتما شاء.

ومن الثمار المرجوة كذلك: عدم التذلل للمخلوقين، وكيف يذل نفسه لعبد ذليل مثله.. إنه عز المعرفة بالله العزيز الذي يملك وحده كل شيء، والأمر كله بيده، وله مقاليد السماوات والأرض.

ومنها العزة على الكافرين، ومبعث هذه العزة هو الانتساب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وليس مبعثها شيئًا ذاتيًا، فالمؤمن يرى الكافر على حقيقته عبدًا ذليلًا مهانًا عند الله بكفره.. يراه فيردد: «والمرء من غير دين لا يساوي في الكون شيئًا».

من صور العزة الإلهية:

والصور الإلهية للعزة تشمل كل الجوانب التي بها تكون الرفعة، ومن ذلك:

عزة المُلك:

فالله عَزَّوَجَلَّ يملك الكون كله: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٨٣].

ولا أحد غيره يملك أي شيء مهما كان حجمه ولو مثقال ذرة: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ

فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢].

حتى الملائكة والرسل والأنبياء.. لا يملكون شيئًا في هذا الكون: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

فكل ما في أيدينا وما حولنا مِلك لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [النور: ٣٣].

أما ما عندنا من أشياء نمتلكها فما هي إلا هبات ومنح من الله عَزَّوَجَلَّ على سبيل الإعارة وليست على سبيل الملك الحقيقي، بمعنى أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو مالكها الحقيقي، وستؤول إليه لا محالة: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ [مريم: ٤٠].

وهو صاحب هذا الملك المطلق، له وحده الحق في المنع والعطاء: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وله وحده الحق في التشريع: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وله وحده الحق في أن يعاقب أو يغفر: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [المائدة: ٤٠].

عزة القوة:

فالله عَزَّوَجَلَّ يملك القوة جميعًا: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ولا توجد قوة في هذا الكون غير قوته، وكل قوة نراها في مخلوق فصاحبها لا شك يستمدها من الله عَزَّوَجَلَّ، فلا حول ولا قوة إلا بالله.. تأمل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

فالآية تؤكد لنا حقيقة القوة التي نراها في أبداننا حال الشباب، وأن الذي يعيرنا إياها هو الله، وأنه سبحانه يأخذها منا عند التقدم في السن.

فالمغرور بقوته من البشر هو الذي يظن أن لديه قوة ذاتية، وينخدع فيما حباه الله من أسباب القوة ويظن أنها ملك له.

عزة العلم:

فالله عَزَّوَجَلَّ عنده العلم جميعًا: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧].

فما من علم يتعلمه الإنسان إلا من الله مصدره: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، ولا يقدر أحد أن يعرف شيئًا من علم الله إلا بالله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

عزة القدرة:

فالقدرة كلها لله، وما من قدرة نراها لمخلوق من المخلوقات إلا ويستمدها من الله عَزَّوَجَلَّ.. فقدرة البذرة على الإنبات، والنار على الإحراق، والماء على الإرواء، والشمس على الإضاءة والدفء، وكذلك قدرة اللسان على الكلام، والعين على الرؤية، واليد على البطش، والأذن على السمع و... كل ذلك مستمد من الله عَزَّوَجَلَّ

لحظة بلحظة وآنًا بآن: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ ﴾ [النجم: ٤٣، ٤٤] فلا قدرة لمخلوق إلا بالله.

عزة القضاء:

الله عَزَّوَجَلَّ عزيز في قضائه لا يملك أحد سواه إنفاذ مشيئه.. فلا مشيئة إلا به: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان: ٣٠].. فكل شيء يحدث في الكون فبعلم الله وإذنه ومشيئته: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

عزة الرحمة:

لله عَزَّوَجَلَّ خزائن الرحمة كلها، يرحم الله بها من يشاء من عباده، ويضعها في قلب من يشاء من عباده: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وإذا منحها لعبد فلا يمكن لأحد أن يسلبها منه، وإن منعها عن عبد فلا يمكن لأحد أن يستجلبها له: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر: ٢].

عزة النصر:

فالنصر من عند الله لا من عند البشر: ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنفال: ١٠]، ومهما كانت الأسباب التي يتفوق بها طرف على آخر، فهي في النهاية لا تستجلب النصر، فلقد جعل سبحانه النصر من عنده وحده: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٣].

فــلا يوجد طريق يؤدي إلى النصر إلا ويبدأ مــن عند الله: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

عزة النور والهداية:

فالله عَزَّوَجَلَّ هو المصدر الوحيد لنور السماوات والأرض وما فيهن: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥] والكون كله ظلمة بدون نوره ســبحانه، فلا نور إلا نوره، وما من نور على وجه الأرض إلا ويُستمد من نوره سبحانه: ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٣٥].

ومــن أهم صور النور: نور البصيرة والهدايــة إلى الحق، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي ينير القلوب ويشرح الصدور للإسلام: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ [الزمر: ٢٢].

ولا يمكن لأحد أن يقوم بهذه المهمة سواه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٥٦].

ولو اجتمع البشــر كلهم على رجل واحد وأرادوا هدايته فإنه لن يهتدي إلا إذا شــاء الله: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ١١١﴾ [الأنعام: ١١١].

عزة الحكمة:

ومع هذه الصور المختلفة للعزة تأتي صــورة عزة الحكمة لتتوج هذه الصور جميعًا، فالله عَزَّوَجَلَّ الذي يملك كل شــيء، وعنده مفاتح وخزائن العزة كلها، فإنه ســبحانه حكيم في عزته.. فقهره لعباده بحكمة، وبســط الــرزق وقبضه لحكمة،

وهدايته أو إضلاله بحكمة، ومغفرته أو عقابه بحكمة: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٦].

نماذج قرآنية:

أفاض القرآن في ذكر نماذج تطبيقية لصور العزة المختلفة، وأفاض كذلك في بيان نماذج للمغترين الذين توهموا أن لهم عزة ذاتية وكيف كانت نهايتهم.

فمن النماذج التطبيقية لعزة القوة: المثال الذي تحدى الله به الناس جميعًا ليبين لهم أنه لا قوة إلا قوته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤].

أما عزة القدرة فقد ظهرت جلية في سلب خاصية الإحراق من النار، وعدم إمدادها بالقدرة على ذلك حين حاول الكفار حرق إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وكذلك عدم إمداد السكين بالقدرة على القطع عندما أراد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذبح ابنه إسماعيل تنفيذًا لأمر الله.

ومن النماذج التي تبين عزة القضاء، ما حدث لمحمد ﷺ عند الهجرة، فقد أراد المشركون قتله، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أراد نجاته وهجرته، فكان ما أراد: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومن نماذج عزة الرحمة نجاة الرسل كنوح وصالح وهود عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وإصابتهم بالرحمة الإلهية دون غيرهم من الذين حق عليهم العذاب المبين: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود: ٥٨].

وتتجلى عزة الحكمة في غزوة بدر: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: ٤٤].

أما عزة الهداية فتتمثل في امرأة فرعون التي آمنت رغم وجودها في أجواء مفعمة بالكفر والضلال، وتتمثل كذلك في عدم إيمان زوجتي نوح ولوط عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

ومن نماذج عزة النصر ما حدث في بدر من نزول الملائكة وقتالهم مع المؤمنين، ومن نزول المطر، وغير ذلك من التأييدات الغيبية، ومع ذلك لم تكن هذه الأشياء هي سبب النصر الحقيقي، فالنصر كان من عند الله وحده لا شريك له، كما أخبرنا سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ٩، ١٠].

ومن نماذج عزة القوة ما حدث في غزوة الأحزاب عندما ألقى الله الرعب في قلوب المشركين، فأصبحوا خائفين هلعين؛ مما جعلهم يفرون من أماكنهم ويعودون حيث أتوا: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].

نماذج للعزة الزائفة:

ومع عرض القرآن لنماذج وصور العزة الإلهية فإنه يعرض كذلك نماذج للمغترين الذين انخدعوا بما لديهم من أسباب، وظنوا أنهم يملكونها أو يرتفعون بها على غيرهم، ومن هذه النماذج: نموذج الاغترار والعزة الزائفة بالمال ويتمثل في قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

ونموذج الاغترار بالأولاد والضياع ويمثله صاحب الجنتين: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٤-٣٦].

ومن نماذج الاغترار بالقوة.. قوم عاد: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وضوح الرؤية:

ولكي يستقر مفهوم العزة الإلهية في الأذهان فإن القرآن يكشف كذلك للإنسان عن حقيقته، وأنه لا يمتلك عزة ذاتية فأصله هو الطين والتراب.. لا من ذهب ولا فضة، وحتى الذهب والفضة إن كانا هما أصله فلن يضيفا له شيئًا من العزة من دون مولاه: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٧، ٨].

وأنه جاهل لا يعلم ما سيحدث له بعد طرفة عين، وفقير لا يملك مثقال ذرة، وأنه ضعيف وعاجز لا يستطيع إنفاذ إرادته.

فمن كان ذا أصل حقيـــر؛ ومن كان جاهلًا بالعواقب، فقيـــرًا ضعيفًا، عاجزًا، فليس له إلا التذلل لمن يملك كل شيء، وعنده مفاتح الغيب، وخزائن العزة.

أعمال يُفضل القيام بها وبأمثالها:

١- تتبُّع مظاهـــر العزة الإلهية في القرآن مع الاجتهـــاد في تجاوب الفكر مع العاطفة حتى يستقر مدلولها في اليقين، ويتشابك هذا المدلول مع المشاعر ويشكل جزءًا من إيمان القلب، وحبذا لو تم تخصيص ختمة أو أكثر لذلك.

٢- «هـــل لك عزة ذاتية؟» يمكننا الإجابة عن هذا الســـؤال من خلال القرآن، واكتشاف حقيقتنا من خلال تلك الإجابة.

٣- القيام بأعمال تعبر عن حقيقتنا، وأن الواحد منا لا يفضل غيره بلباســـه أو جاهه أو ماله، فالكل ســـواء، والكل أذلاء للعزيز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والكل سواء في عدم امتلاك شيء ذاتي يمكنهم الاعتزاز والرفعة به على الغير.

ولكي ترســـخ هـــذه الحقيقة أكثـــر وأكثر فإن من المناســـب القيـــام بأعمال المتواضعين، من الجلوس مع المســـاكين، والســـعي في قضاء حوائجهم، وعدم طلب التميز على أحد، وكذلك خدمة الآخرين، وعدم المباهاة أو التفاخر بشيء... وغير ذلك من صور التواضع.

٤- المبالغة في التذلل لله عَزَّوَجَلَّ: فاستجلاب ما عند العزيز يأتي بحسن التذلل لـــه: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]. ومـــن أجلِّ صور التذلل: الســـجود؛ لذلك فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ســـاجد: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩].

والمقصد أن نبالغ في إظهار التذلل لله عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا قيمة لنا إلا به.

٥- طلب الأشياء التي نريدها من الناس بعزة؛ لأنهم مثلنا لا يملكون من الأمر شيئًا، فالعزة كلها لله، والله أعز من خلقه جميعًا، والله أعز ممن نخاف ونحذر..

٦- الإكثار من ذكر «**لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**» تعبيرًا عن كوننا لا نساوي شيئًا بدون الله عَزَّوَجَلَّ.

۞ ۞ ۞

النموذج الرابع عشر:

الإيمان بالله الغني الحميد

الله عَزَّوَجَلَّ وصف نفسه بأنه الغني الحميد، فهو سبحانه قائم بذاته.. يُطعِم ولا يُطعَم، يُجيرُ ولا يُجارُ عليه.. لا يضرُّه كفر الكافرين: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ٨].

ولا تنفعه طاعة الطائعين: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء: ٧].

لا ينتفع بشيء من جهاد المجاهدين: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت: ٦].

ولا إنفاق المنفقين: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾ [محمد: ٣٨].

فالمستفيد من الطاعة هو صاحبها، والمتضرر من المعصية هو مرتكبها: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ١٢].

معنى ذلك أن سعيك لنفسك.. إحسانك لنفسك.. صلاحك لمصلحتك.

هذا المعنى العظيم عندما يصبح إيمانًا عميقًا راسخًا في القلب، فإن من شأنه

أن يجعل العبد دوماً مستصغرًا عمله، شاعرًا بأنه هو المستفيد الأول منه؛ ومن ثم لا يمن به على أحد، ولا يظن أن له به منزلة عند ربه.

الكون العابد:

ومما يؤكد هذا المدلول التعرف على الله الحميد، فالله عَزَّوَجَلَّ يسبحه ويحمده من في السماوات والأرض ليلًا ونهارًا: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فإذا ما تعرّف العبد على عبودية الكون لله، فإن هذا من شأنه أن يجعله دومًا مستصغرًا أعماله مهما بلغت، وتسبيحه مهما كثر، ولِمَ لا وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

تخيل أنك تريد زيارة أحد المرضى فذهبت إلى بائع الحلوى، واشتريت علبة ذات سعر مرتفع وأخذتها وانطلقت بها إلى صديقك المريض، وفي الطريق حدثتك نفسك بأنه عندما يرى هذه العلبة القيّمة فسيسر بك، وسترتفع منزلتك عنده، و... وعندما وصلت إليه والزهو يمتلكك إذا بك تُفاجأ بعشرات العلب الأكثر قيمة من علبتك.. ماذا سيكون شعورك وقتها؟! هل سيستمر زهوك وإعجابك بما اشتريت؟!

الأمر ذاته ينبغي أن يحدث لنا عندما نتعرف على الله الحميد.. فنحن قد نصلي رُكيْعات بالليل ونظن حينها أننا فعلنا شيئًا عظيمًا نستحق عليه المنزلة عند الله.. هذا الشعور بالزهو والعُجب سيذهب ويتلاشى إذا ما عشنا مع معنى الغني الحميد في القرآن، وتعرفنا على مدى استغناء الله عنا، وعلى صور من عبودية الكون له: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الجمعة: ١].

فلنعمل إذن على تمكين هذا المعنى الإيماني من عقولنا وقلوبنا لنزداد استصغارًا لأنفسنا ولأعمالنا التي نقوم بها.

وأهم مصدر للتعرف على هذا المعنى هو القرآن الذي أفاض في الحديث عن معنى (الله الغني) وصور غناه عن عباده، وكذلك معنى الحميد ومظاهر عبودية الكون له سبحانه، وحبذا لو خصصنا لذلك ختمة من ختماتنا، واجتهدنا في تفاعل القلب مع الفكر مع آياتها.

النموذج الخامس عشر:

عفو الله أو النار

والمستهدف من الإيمان بهذا الجانب هو بناء اليقين في عقولنا، والإيمان في قلوبنا بأنه لن تنجينا أعمالنا مهما كان حجمها، فإما عفو الله أو النار.

هــذا الجانب له ارتباط وثيق بجانب الإيمــان بالله الوهاب، باعتبار أن معرفة حق اللــه علينا (حق النعــم)، وتأكدنا من عدم قدرتنا على الوفاء به ســيؤدي إلى استشعارنا بأنه لا أمل أمامنا إلا عفو الله عَزَّوَجَلَّ، وأن أعمالنا مهما بلغت فلن تكون سببًا في نجاتنا.

لن تنجينا أعمالنا:

للــه عَزَّوَجَلَّ حقان علــى العبد: حق طاعــة أوامره، وحق شــكر نعمه... فكل نعمة وهبها الله للعبد لها مقابل ألا وهو الشكر: ﴿ **وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾** ﴾ [النحل: ٧٨].

ومن أجلِّ صور الشــكر: العبادة: ﴿ **يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾** ﴾ [آل عمران: ٤٢]، ما هو شكر هذه النعمة العظيمة؟ ﴿ **يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾** ﴾ [آل عمران: ٤٣].

ولو قام الواحد منا بإحصاء نعم ربه لتأكد أنه لن يستطيع الوفاء بحقها ولو ظل ساجداً طيلة حياته، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لو طالبه بحقه يوم القيامة لهلك: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر: ٨]. فمن يُسأل عن النعيم، وعما وهبه الله من نعم، ويُطالب بأداء حقها لدخل النار لا محالة؛ لأن أعماله كلها لا توفي ولن توفي حق نعمة من نعم الله عليه، يستوي في ذلك جميع الخلق بمن فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ**» فَقُلْتُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الانشقاق: ٨]؟ فقال: « **لَيْسَ ذَاكَ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكَ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ** »[(١)].

معنى هذا أنه لا أمل لنا إلا في عفوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالسعي والاجتهاد في الطاعة ليس الهدف منه مقايضته بالجنة، بل هو للتعرض لعفو الله ورحمته، فالعمل الصالح مهما بلغ فلن يوفي ولو جزءًا يسيرًا من حق الله علينا، وعندما يجعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الجنة جزاء لعباده الطائعين فهذا فضل منه سبحانه، وليس حقًّا لهم لكي يطالبوا به.. تأمل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الدخان: ٤٠-٤٢] فالنجاة من النار رحمة عظيمة من الله عَزَّوَجَلَّ، أما الجنة فهي منحة منه سبحانه يختص بها من يشاء من عباده.

---

(١) البخاري (١/ ٣٢ برقم: ١٠٣)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٤ برقم: ٢٨٧٦).

لماذا الاستغفار بعد الطاعة؟!

ومما لا شك فيه أن الذي يتعرض لهذا الفضل الإلهي هو ذلك الشخص الذي يُقبل على الله وهو ناظر في حقه سبحانه عليه، مستصغرًا عمله، منكسرًا بين يديه، خائفًا من عدم قبول ما قدمه إليه من أعمال مهما عظمت، مكثرًا من الاستغفار بعد أدائه للطاعة، فهو يوقن أنها لا تليق بعظمة الله ولا بحقه عليه، كما دلنا الله على ذلك بعد الإفاضة من عرفات: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

فليست العبرة بأداء العمل الصالح فقط، ولكن برضا الله عنه كذلك، كما قال العبد الصالح: ﴿ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ﴾ [النمل: ١٩].

وفي القرآن عشرات المواضع التي تذكرنا بحق الله علينا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل: ١٤]، وتذكرنا كذلك بأن سعينا ينبغي أن يكون لنيل المغفرة أولًا، ثم الجنة بعد ذلك تكرمًا وتفضلًا من المولى -سبحانه- لا استحقاقًا لنا مهما كانت أعمالنا.

يقول تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

ويقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك: ١٢].

فالمغفرة أولًا، فإن تمَّت كان الأجر الكبير، فضلًا من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

توصيات عملية:

١- تتبع الآيات التي تتحدث عن نعم الله علينا واستشعار حقها من الشكر.

٢- تتبع الآيات التي تقرر أن سعينا ينبغي أن يكون لنيل مغفرة الله ورحمته أولًا، ثم الجنة بعد ذلك فضلًا من الله لا استحقاقًا لها.

٣- الإكثار من الاستغفار وبخاصة بعد أداء الطاعات: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٨].

٤- الإكثار من ذكر الله: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

النموذج السادس عشر:

الإيمان بالرسل

ويشمل هذا الجانب والركن المهم من أركان الإيمان:

* أن الرسل قد أرسلهم الله عَزَّوَجَلَّ ليبلغوا الناس رسائله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ [الروم: ٤٧].

* وأن هذه الرسائل تحمل في طياتها تذكيرًا بالعهد الأول ونصائح من الله لعباده، وتبشيرًا لهم بالجنة -إن هم أطاعوه- وإنذارًا بالنار -إن هم عصوه: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

* هؤلاء الرسل بشر مثلنا منَّ الله عليهم بتبليغ الرسالة: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم: ١١].

* وهم مثلنا لا يملكون من الأمر شيئًا، فهذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لأبيه: ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الممتحنة: ٤].

* ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا: ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

مثال العبودية:

ومما يشـــمله هذا الجانب الإيماني كذلك التعرف على مدى عبودية الرســـل لربهم كنماذج ومُثل يُحتذى بها.. هذه العبودية التي قد امتلأت بها قلوبهم وظهرت آثارها على أفعالهم وأقوالهم، ونقلها إلينا القرآن في كثير من آياته، ومن ذلك:

* تقواهم لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٧٥].

* وإخلاصهم له سبحانه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٩].

* ويعرض القرآن نماذج تبين مدى انكسار الرسل لربهم: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف: ١٥٥].

* وأنهـــم كانوا يردون كل أمر له ســـبحانه، فقد كانـــوا يتعاملون مع أحداث الحياة ويرون من ورائها ربًّا حكيمًا، رءوفًا، غفورًا، واســـع الفضل.. تأمل معي ما قاله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأبويه وهو يخبرهما بما حدث له ومدى فضل ربه عليه وذكر إخراجه له من الســـجن، ومع أن ظاهر القصة يشير إلى أن الملك هو الذي أخرجه وأجلســـه في هذا المنصب لكنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعتبر ما فعله الملك كله ما هو إلا ســـتار لقدرة اللـــه: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ﴾ [يوسف: ١٠٠].

* ومن مظاهر عبودية الرســـل ســـرعة إنابتهم لربهـــم: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

* وكذلك سرعة شكرهم له سبحانه كلما أفاض عليهم بالنعم: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

* ومن مظاهر عبودية الرسل حرصهم الشديد على هداية قومهم: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود: ٨٤].

* ومن مظاهر عبودية الرسل كذلك تحملهم التكذيب والأذى في سبيل الله: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

* ومنها استصغارهم لأنفسهم واستشعارهم عظيم فضل الله عليهم، وأنهم به سبحانه لا بأنفسهم، ولو تخلى عنهم لهلكوا وضلوا.. تأمل ما قاله شعيب لقومه: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩].

وما قاله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يناجي ربه: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

أما تذللهم لله عَزَّوَجَلَّ فيظهر في دعائهم والذي عرض لنا القرآن عدة نماذج له، منها ما جاء على لسان نبي الله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

وكذلك ما دعا بـــه خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٣٨-٤١].

الإيمان بالرسول وواجبنا نحوه:

ومما يرتبط بهذا الجانب، وأفاض القرآن في ذكره أيضًا: وجوب الإيمان بالرسول ﷺ وطاعته: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧].

وأن طاعته من طاعة الله بل إنها من دلائل حب العبد له سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ٣١].

كيف ربَّى الله رسوله ﷺ على كمال العبودية؟

من الموضوعات العظيمة التي تحدث عنها القرآن كثيرًا تربية الله لرسوله الحبيب ﷺ على كمال العبودية، ولِمَ لا وهو خير رسله، وأحب خلقه إليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وهو الأسوة الحسنة والنموذج الكامل الذي ينبغي أن يحتذي به من أراد أن يعبد الله عبادة صحيحة: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

والآيات التي تتحدث عن هذا الموضوع كثيرة، وتتناول جوانب عديدة للعبودية نذكر منها:

* تربيته ﷺ على الإخلاص التام لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣].

* وتحذيره الشديد من الشرك: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الزمر: ٦٥،٦٦]، ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٢].

* وأنه بشر مثل بقية الناس لكنه يوحى إليه: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠].

* وأنه مثل البشر لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٤٩].

* لا يملك من الأمر شيئًا، ولا يعلم الغيب: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥].

* وأنه بالله لا بنفسه: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الإسراء:٨٦-٨٧].

* وتحذيره من الدنيا: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾ [طه: ١٣١].

مواقف تربوية:

ويقص علينا القرآن مواقف تربوية ربى فيها الله عَزَّوَجَلَّ رسوله الكريم ﷺ على كمال

العبودية.

ومن ذلك عندما سأله المشركون عن فتية الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح، فأخبرهم أنه سيجيبهم في الغد ولم يقدم المشيئة، فتأخر عليه الوحي خمسة عشر يومًا، ثم نزل بآيات من سورة الكهف وفيها الدرس التربوي المهم: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

* وعندما قتل المشركون في أحد العديد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مثل: حمزة ومصعب وعبد الله بن جحش دعا الرسول ﷺ على المشركين بأسمائهم فنزل القرآن: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

* ومن أشد المواقف التربوية ما حكته سورة عبس: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾ [عبس: ١-١١].

* ومن المواقف التربوية كذلك: التسرية عنه ﷺ لما كان يلاقيه من أذى قومه كقوله تعالى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقوله: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس: ٦٥].

* ومن المواقف التربوية: تعليمه ﷺ صور شكر ربه على نعمه العظيمة، ومن ذلك ما جاء في سورة النصر والتي نزلت بعد فتح مكة: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ

وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١-٣].

أعمال يُفضل القيام بها وبأمثالها:

١- تتبع الآيات التي تتحدث عن الرسل -عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ- وكيف تعاملوا مع قومهم، ومدى تمثل مظاهر العبودية فيهم، وكيف رباهم الله عَزَّوَجَلَّ عليها، وعلينا أن نجتهد في مزج الفكر بالعاطفة عند قراءتنا لتلك الآيات لتتمكن هذه المعاني من يقيننا وتشكل جزءًا من إيماننا.

٢- تتبع الآيات القرآنية التي يخاطب فيها الله عَزَّوَجَلَّ رسوله ﷺ، والاجتهاد في التفاعل معها والتعرف على كيفية تربية الله عَزَّوَجَلَّ لرسوله الحبيب ومكانته عنده وواجبنا نحوه ﷺ.

٣- دراسة كتاب من كتب السيرة النبوية نقترب من خلاله أكثر وأكثر من الرسول ﷺ.

٤- الإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ.

النموذج السابع عشر:

الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان.. ويشمل هذا الجانب: حقيقتهم.. وظائفهم.. عبوديتهم لله عَزَّوَجَلَّ.. واجبنا نحوهم.

حقيقة الملائكة:

الملائكة خلق من الله.. خلقوا من نور، لا تنطبق عليهم قوانين البشر، فهم ليسوا ذكورًا ولا إناثًا: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الزخرف: ١٩].

وهم كسائر الخلق: عبيد لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ ﴾ [النساء: ١٧٢].

بل إن خوفهم من الله شديد: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣].

وهم في عبادة دائمة لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

مثلهم مثل سائر الخلق ليس لهم من الأمر شيء: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النجم: ٢٦].

علاقتهم بالبشر:

أخبرنا القرآن أن الملائكة قد علمت منزلة البشر عند الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه سبحانه قد كرّم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمرهم بالسجود له فسجدوا، لذلك جعلوا جزءًا من عبادتهم التي يتقربون بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ: الدعاء والاستغفار لمن في الأرض: ﴿ **وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾** ﴾ [الشورى: ٥].

فكما أننا نصلي على الرسول ﷺ كقربة إلى الله عَزَّوَجَلَّ باعتبار أنه ﷺ أحب الخلق إليه.. فكذلك الملائكة تتقرب إليه سبحانه بالاستغفار للبشر، بخاصة المؤمنون منهم لعلمهم بمنزلتهم عند ربهم: ﴿ **ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾** ﴾ [غافر: ٧- ٩].

وظائف الملائكة:

والملائكة عباد مقربون لله عَزَّوَجَلَّ يقومون بتنفيذ أوامره في تدبير مملكته سبحانه: ﴿ **يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ** ﴾ [النحل: ٢].

ورئيسهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو الذي يقوم بإبلاغ الوحي للرسل: ﴿ **قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾** ﴾ [البقرة: ٩٧].

وهناك ملك الموت الذي ينفذ أوامر الله بنزع الروح لمن قدَّر سبحانه له الموت: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة: ١١].

وهناك إسرافيل الموكَّل بالنفخ في الصور.

وهناك حملة العرش: ﴿ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [الحاقة: ١٧].

وهناك مَن يقوم بتسجيل أفعال العباد وأقوالهم: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق: ١٨].

وهناك الحفظة الذين يقومون بحفظ البشر بأمر من الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾ [الرعد: ١١].

وهناك الملائكة السيَّارة في الكون، والذين يتعاقبون بالليل والنهار يشهدون الصلاة وحلق الذكر، وهناك الملائكة الذين يحملون البشرى من الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الصالحين عند الموت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

والملائكة منهم حُرَّاس للنار: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦].

ومنهم مَن يقوم على نعيم المؤمنين في الجنة: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر: ٧٣].

نماذج قرآنية:

عرض القرآن نماذج تطبيقية لبعض الأدوار التي تقوم بها الملائكة.

فمنهم من ذهب لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وزوجه يبشرونهما بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب. ويخبرون إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بما سيحل على قوم لوط من العذاب: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود: ٦٩- ٧٣].

ومن النماذج القرآنية التي تعرض بعض أدوار الملائكة ما حدث في غزوة بدر ونزول الملائكة للقتال في صفوف المؤمنين: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [الأنفال: ١٢].

أعمال يفضل القيام بها:

١- تتبُّع الآيات التي تتحدث عن الملائكة من ناحية كنههم وعبوديتهم لربهم ووظائفهم التي يقومون بها، وعلاقتهم ببني آدم، وحبذا لو أكثرنا من التأمل في هذه الآيات والاجتهاد في تفاعل الفكر والعاطفة معها.

٢- استشـــعار قرب الملائكة ووجودها معنا وتسجيلها لأعمالنا، وحضورها لمجالس الذكر، وقراءة القرآن.. وهذا من شـــأنه أن يؤدي إلى حسن الأدب معهم، وتأجيج الشعور بالتقوى لله عَزَّوَجَلَّ.

الخاتمة

أخي القارئ:

هذه نماذج لكيفية بناء الإيمان العميق من خلال القرآن، ولعلك توافقني على أننا لو أحسنَّا التعامل مع تلك النماذج وغيرها مما ستضيفه أنت إليها، فإن هذا -بمشيئة الله- سيكون له أثر عظيم على سلوكنا، وستضيق من خلاله الفجوة القائمة بين العلم والعمل، والواجب والواقع، وسنتذوق من خلاله طعم الإيمان، وحلاوة معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، ونتعلم منه العلم النافع المقرب إليه سبحانه.

فماذا نريد أكثر من ذلك؟ ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وأخيرًا، نسألُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ أن يجعلنا مِن أهل القرآن، وأن يكون لنا إمامًا في الدُّنيا، وأنيسًا في القبر، وشفيعًا يوم القيامة.

وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَىَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

۞ ۞ ۞

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول: حقيقة الإيمان	**٩**
حقيقة الإيمان	١١
مفهوم الإيمان بالله	١٣
المشاعر بين الإيمان والهوى	١٣
أهمية الإيمان بالله	١٤
الإيمان وعورات النفس	١٦
الثمار المباركة	١٧
كيف يزداد الإيمان	١٩
الإيمان قول وعمل	٢٢
الإيمان أولًا	٢٤
أهمية التذكرة	٢٥
التذكير قبل التوجيه	٢٦
الفصل الثاني: كيف نزداد بالطاعات إيمانًا؟	**٢٩**
كيف نزداد بالطاعات إيمانًا؟	٣١
مقياس زيادة الإيمان	٣١
أهمية الزيادة المستمرة للإيمان	٣٢
إيقاظ الإيمان هو البداية	٣٤

الموضوع **الصفحة**

أركان الإيمان..... ٣٦
الفصل الثالث: القرآن ودوره في تأسيس القاعدة الإيمانية ٣٩
القرآن ودوره في تأسيس القاعدة الإيمانية..... ٤١
طريقة القرآن في زيادة الإيمان ٤٢
كيف نزداد إيمانًا من خلال القرآن؟ ٤٦
أولًا: الدخول إلى القرآن من بابه الصحيح ٥٠
ثانيًا: الانشغال بالقرآن ٥١
ثالثًا: التهيئة الذهنية ٥٢
رابعًا: التهيئة القلبية ٥٣
كيف تتم التهيئة القلبية؟..... ٥٤
خامسًا: الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة ٥٥
سادسًا: فهم ما نقرأ ٥٧
سابعًا: أن نكتفي بالمعنى الإجمالي للآيات ٥٨
ثامنًا: التجاوب مع القرآن ٥٩
تاسعًا: ترديد الآية التي تؤثر في القلب..... ٦٠
عاشرًا: استصحاب معنى إيماني ٦٢
الفصل الرابع: كيفية بناء الإيمان من خلال القرآن ٦٣
كيفية بناء الإيمان من خلال القرآن ٦٥
بناء العقيدة ٦٦
ربط القرآن بالحياة..... ٦٧
نماذج إيمانية ٦٩
الفصل الخامس: نماذج مقترحة لبناء الإيمان من خلال القرآن..... ٧١
النموذج الأول: الإيمان بالغيب..... ٧٣
أهمية الإيمان بالغيب ٧٣

الموضوع الصفحة

كيف نؤمن بالغيب؟ ٧٤
كيف نؤمن بأن القرآن حق؟ ٧٥
أعمال يفضل القيام بها ٧٨
النموذج الثاني: الإيمان بالله الواحد الأحد ٨٠
محاور الإيمان بالوحدانية ٨١
أعمال يُفضل القيام بها ٨٣
النموذج الثالث: الإيمان باليوم الآخر ٨٥
إثبات المعاد ٨٦
أعمال يُفضَّل القيام بها ٨٩
النموذج الرابع: الدنيا دار امتحان ٩٢
لماذا الاختلاف بين الناس؟! ٩٤
أعمال يُفضل القيام بها ٩٧
النموذج الخامس: الإيمان بالله الوهاب ٩٩
نعم الخلق والإيجاد ٩٩
نعم الإمداد ١٠٠
نعم الحفظ ١٠٢
نعم الهداية ١٠٢
نعم الثبات ١٠٢
نعم التيسير والتوفيق والسداد ١٠٢
نعم الاجتباء وسبق الفضل ١٠٣
النموذج السادس: الإيمان بالله الودود ١٠٥
لماذا يحبنا الله عَزَّوَجَلَّ؟! ١٠٦
قبوله اعتذار المعتذرين ١٠٨
حلمه علينا ١٠٨

الموضوع **الصفحة**

خطابه الودود لعباده ١١٠
نصائحه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده ١١٠
رحمته الخاصة بالضعفاء ١١٢
يعلمنا ما نقول ليعفو عنا ١١٣
استثارة همتنا لفعل الخير ١١٤
تذكيرنا بأخطاء من سبقونا ١١٥
الترغيب والترهيب..... ١١٦
أعمال يُفضَّل القيام بها..... ١١٧
النموذج السابع: الإيمان بالله الرب القيوم ١١٨
أهمية الإيمان بالله الرب القيوم ١١٩
ربوبية وقيومية الخلق ١٢١
ربوبية وقيومية الإمداد ١٢١
قيومية العلم والإحاطة بكل شيء ١٢٣
قيومية الهداية..... ١٢٤
قيومية العصمة..... ١٢٤
قيومية الولاية والحماية ١٢٦
قيومية القرب والإجابة..... ١٢٦
قيومية التعاهد والتربية للمؤمنين ١٢٨
أمثلة لأعمال يُفضل القيام بها ١٢٨
النموذج الثامن: الحكم العدل ١٣٠
كيف نؤمن بهذا الجانب؟!..... ١٣٠
البداية من العبد..... ١٣١
عاقبة الذنوب..... ١٣٣
عقوبات الأمم ١٣٤

الموضوع **الصفحة**

نماذج قرآنية ١٣٥
أمثلة لأعمال يُفضل القيام بها ١٣٦
النموذج التاسع: الإيمان بالله القهار ١٣٨
أهمية الإيمان بهذا الجانب ١٣٨
كيفية بناء الإيمان واليقين بالله القهار ١٣٨
نماذج تطبيقية من القرآن ١٤١
أمثلة لأعمال نستصحبها ١٤٤
النموذج العاشر: الإيمان بالله الرقيب القريب ١٤٥
أهمية الإيمان بالله الرقيب القريب ١٤٥
كيفية الإيمان بهذا الجانب ١٤٦
أعمال يُفضل القيام بها ١٥٠
النموذج الحادي عشر: الإيمان بالله القدير ١٥٢
من مظاهر القدرة الإلهية ١٥٢
قدرة الخلق والإبداع ١٥٣
قدرة الحفظ والإمداد ١٥٣
نماذج تطبيقية ١٥٦
أعمال يُفضل القيام بها ١٥٨
النموذج الثاني عشر: الإيمان بالله الحكيم ١٦٠
أهمية الإيمان بالله الحكيم ١٦٠
معنى الحكمة ١٦١
من مظاهر الحكمة ١٦١
الحكمة في المخلوقات ١٦١
الحكمة من التشريع ١٦٣
الحكمة من الآيات الكونية ١٦٤

الموضوع **الصفحة**

الحكمة من الابتلاء ١٦٤
نماذج قرآنية ١٦٦
أعمال يفضل القيام بها ١٦٧
النموذج الثالث عشر: الإيمان بالله العزيز ١٦٩
أهمية الإيمان بالله العزيز ١٦٩
من صور العزة الإلهية ١٧٠
عزة المُلك ١٧٠
عزة العلم ١٧٢
عزة القضاء ١٧٣
عزة الرحمة ١٧٣
عزة النصر ١٧٣
عزة الحكمة ١٧٤
نماذج قرآنية ١٧٥
نماذج للعزة الزائفة ١٧٧
أعمال يُفضل القيام بها ١٧٨
النموذج الرابع عشر: الإيمان بالله الغني الحميد ١٨٠
الكون العابد ١٨١
النموذج الخامس عشر: عفو الله أو النار ١٨٣
لن تنجينا أعمالنا ١٨٣
لماذا الاستغفار بعد الطاعة؟! ١٨٥
توصيات عملية ١٨٦
النموذج السادس عشر: الإيمان بالرسل ١٨٧
مثال العبودية ١٨٨
الإيمان بالرسول وواجبنا نحوه ١٩٠

الموضوع **الصفحة**

كيف ربَّى الله رسوله ﷺ على كمال العبودية؟ ١٩٠
مواقف تربوية ١٩١
النموذج السابع عشر: الإيمان بالملائكة ١٩٤
حقيقة الملائكة ١٩٤
علاقتهم بالبشر ١٩٥
وظائف الملائكة ١٩٥
الخاتمة ١٩٩
الفهرس ٢٠١